علمجی ۱

ابرهیم لنکولن

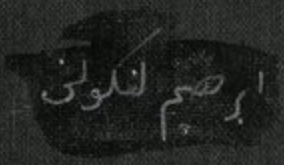

A.U.B. LIBRARY.

Cat. Jan. 1952

الى مشيخة المجددت العربية
الأدبية
مع تحيات
دار العلم للملايين
١٤/١٢/٤٦

EMORY UNIVERSITY LIBRARY
923173
L736qA
C.1

قدري قلعجي

ابراهيم لنكولن

محرر العبيد وموحد الولايات الاميركية

Cat. Jan. 1952

78157

اعلام الحرية

٣

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

دار العلم للملايين

كانون الأول ١٩٤٦

Abraham Lincoln

ابراهيم لنكولن

ما وقعتْ على شوكة عيناي ، الا حاولتُ اقتلاعها لأغرس مكانها وردة ، ما طاب للورد منبت الشوك .

ألا ما أصعب أن يَغْرُبَ الأنسان ، تاركاً وراءه هذا العالم ، ولم تجعله حياته العابرة ، خيراً مما كان عليه وأسمى .

ابراهيم لنكولن

ابن الغابات

•

في أصيل حار من صيف سنة ١٨١٣ ، كان جنـــدي اميركي عجوز يعود الى بيته على طريق قفر من ولاية كنتاكي ، بعـد ان خاض غمار الحرب الاستقلالية الظافرة التي أعلنتها بلاده على بريطانيا العظمى . وكانت الطبيعة التي تحيط به غاية في الجمال والروعـة ، فعلى جانبي الطريق تمتد غابات مترامية كثيفة لا تكاد سهام الشمس الذهبية تستطيع اختراقها ، وفي الجو صفاء وعذوبة تضاعف الشعور بهما فراشات كبيرة ملونة الاجنحة تتنقل بين اعالي الاشجار خفيفة رشيقة ، ومن بعيد يتناهى خرير الساقية مع تغاريد العصافـير من كل لون ، وقد ذاب بعضها في بعض ، فألفت اغنية رائعة منسجمة يرددها صوت الغابة المجنّح .

وبينما كان ذلك الجندي العجوز يسير ببطء وتثاقل ، على تلك الطريق الخالية الطويلة ، معتمداً على عصاه الغليظة ، رازحـاً تحت عبء الآلام والذكريات ، دون ان يحفل بما يحيط به من جمـــال أخـــاذ ، اذا به يسمع صوتاً رقيقاً يقول له وكأنه ينبجس من الارض : « مساء الخير ايها الجندي ! » فينظر الرجـل الى مصدر الصوت ، فيجد أمامه طفلاً في حدود الرابعـــة من عمره ، طويلاً

وقوياً بالنسبة الى سنه ، يرتدي سترة فضفاضة وسروالاً يكشف عن ساقيه الهزيلتين وقدميه الحافيتين ، وهو يحمل باحدى يديه غصن شجرة مشدوداً بخيط غليظ أشبه بصنارة بدائية لصيد الاسماك ، وفي اليد الأخرى سمكة ذات اسفاط فضية هي فيما يبدو ثمرة صيده في ذلك اليوم ، ويحدق في الرجل بعينين صغيرتين شهلاوين ، وكأن قسمات وجهه منحوتة بحد الفأس ، وفمه الملتوي يكاد ينفرج ، من احدى اذنيه الى الاخرى ، بابتسامة حلوة رغم قبحها ، لما تحمل من خبث ساذج واعتداد صبياني .

وقال الطفل لذلك الرجل الشيخ : « من اين أنت آت يا عم ؟ والى اين تذهب ؟ هل حاربت الانكليز ؟ » فابتهج الرجل لمرأى الطفل في تلك البقعة القفر ، وجلس الى جانبه يستريح قليلاً من عناء الطريق ، ويروي له في خلال ذلك بعض مآثره في الحرب ، ثم يسأله عن اسمه وعن أهله ، فينتقل الطفل الى الحديث ويندفع فيه قائلاً :

– « انا ابراهيم لنكولن * ... ولكن أبي وامي يدعوانني ايب ... ان ابي نجار يقطع الاشجار الكبيرة لبناء الأكواخ ... وقد وعد باعطائي فأساً متى بلغت سن السابعة كي اساعده في عمله .. اني ما أزال في الرابعة من عمري ولكن اختي سارا اكبر مني بعامين ... نعم ، اني انا الذي اصطدت هذه السمكة وسأتعشاها بعد قليل . اننا نسكن هناك في منتصف الغابة . هل تريد ان تذهب معي الى البيت ايها الجندي ؟ ان ابي وأمي سيبتهجان بك

* تلفظ : لنكن .

ولا ريب . ولطالما نصحتنا امي بالشفقة على الجنود والشيوخ والمسافرين .. ولا شك في أنها ستدعوك الى ان تبيت عندنا فتروي لنا في الليل قصص الحرب .. »

ولكن الرجل كان يريد العودة الى احضان اهله ، فلم يكد يسمع دعوة ايب حتى نهض فوضع يده المرتجفة على رأس الطفل مباركاً مودعاً ، وعاود سيره ليبلغ بيته قبل هبوط الليل . وظل الصغير مكانه ينظر اليه وهو يبتعد شيئاً فشيئاً ، بقامته المحنية وخطاه المتعبة المتثاقلة ، تحت أشعة الشمس الغاربة وظلال الغابة الكثيفة ، ثم ما لبث ان جرى خلفه بقدميه النشيطتين العاريتين ، فلما دنا منه ناداه بصوته اللاهث ، ووضع في يده سمكته الذهبية ، وعاد عجلانَ قبل أن يسمع رفض الجندي المسنّ لهذه الهبة المتواضعة التي اقتطعها الطفل من عشائه .

*

تحدر ايب من صلب المغامرين الذين اصبحوا في القرن السابع عشر رواداً لتلك القلوات البكر في القارة الاميركية ، فبدأوا يعزقون الغابات ، ويزرعون السهول ، ويعمرون الأراضي الخراب ، ويتقدمون شيئاً فشيئاً الى قلب هاتيك البلاد . وقد لقي جده حتفه ، وكان يدعى ابراهيم لنكولن ايضاً ، على أيدي بعض الهنود الحمر ، في غارة قاموا بها على المستعمرين البيض ، أو قام بها هؤلاء على سكان البلاد الأصليين ، فقد كانت الحرب مستعرة دائماً بين الفريقين : المستعمرون الاوربيون يعملون على إفناء السكان الأصليين بما يدّعون لأنفسهم من حق المدنية التي يحملونها معهم الى

هذه القارة العذراء ، والسكان الهنود يقاومونهم ما وسعتهم المقاومة العزلاء وما حفزهم اليها حب البقاء ، متمسكين بما لهم من حق أصيل في ملكية البلاد . وقلما كان الفريقان يتهادنان ويعملان معاً في استثمار تلك الخيرات الموفورة والانتفاع بثمراتها بروح العدل وعلى قدم المساواة .

وتوزعت اسرة لنكولن بعد مقتل الجد في مختلف الأنحاء ، وكان توما ابو ابراهيم في السادسة من عمره لما فقد اباه ، فعاش حياة تائهة في الغابات والفلوات الغفل ، لا يكاد يقيم في مكان حتى يُدفع منه الى مكان آخر ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الرجال كان محصوله من ذلك التجوال ، حرفة النجارة التي تعلمها خلال نضاله من أجل العيش ، فتزوج ابنة عم له ، واستقرّ معها في بقعة من ولاية كنتاكي ، أنشأ فيها بيتاً حقيراً بناه بنفسه من جذوع الأشجار ، فكان أشبه بكوخ انسان متوحش أو بحطام غريق .

في هذا البيت ولد ابراهيم لنكولن في ١٢ شباط (فبراير) سنة ١٨٠٩ ، وفيه نشأ نشأته الاولى . ولكن اسرة توما لنكولن الصغيرة ما لبثت ان باعته بعشرة براميل من الوسكي واربعة جنيهات . ثم لم يعتم النهر أن ابتلع ثمن الكوخ ، اذ غرقت فيه براميل الوسكي ، فاخذت الأسرة البائسة تتنقل بدافع الحاجة من بقعة الى اخرى ، حتى حطت رحالها في سنة ١٨١٦ ، في مكان صالح للسكنى لوقوعه على مقربة من ينبوع عذب ، وفي بقعة مهجورة من ولاية أنديانا تدعى « خليج الحمامة الصغيرة » . فعانت في بدء هجرتها شتاء رهيباً قضته في الخلاء ، تفترش الأعشاب

اليابسة ، وتتدثر بجلود الحيوانات، وتتقي البرد والمطر ببضعة اغصان من الشجر نصبتها على رابية من الارض . وفي الربيع بنى توما لعائلته بيتاً صغيراً في تلك الناحية ، وما كاد يستقر به المقام فيها ، حتى بدأ المهاجرون يتوافدون اليها ، ويبنون فيها المنازل والمتاجر فعمرت وازدهرت .

ولما بلغ ايب سن السابعة بر ابوه بوعده له ، فأعطاه فأساً صغيرة ليحتطب بها، فطفق يقطع الاغصان وينشر الأشجار ويساعد أباه في جميع أعماله ، يضرب معه في أعماق الغابات ، ويبني الأكواخ والمنازل الصغيرة ، ويحرث تلك البرية الخصبة ويزرعها لتنبت للأسرة ما يقيم أودها طول العام .

وكانت السيدة لنكولن امرأة تقية على شيء من الثقافة ، فحرصت على أن تعلم ابنها القراءة كي يطالع الكتاب المقدس . وكانت قد حاولت من قبل ان تلقن اباه مبادىء القراءة والكتابة ، فلم يتعلم سوى الحروف التي يخط بها اسمه . ولكن ايب كان اكثر شغفاً بالمعرفة وجلداً عليها ، فكان اذا ما عاد من عمله المرهق ، استلقى الى جانب امه لتقرأ له على ضوء اغصان الصنوبر المشتعلة في المدفأة احدى قصص التوراة الممتعة التي تركت في نفسه أثراً عميقاً لازمه في جميع أطوار حياته .

على ان هذه المتعة لم تطل كثيراً ، فان ذلك الشتاء القاسي الذي عانته الأسرة في أول عهدها بخليج الحمامة الصغيرة ، قد هدّم كيانها تهديماً ، فساءت صحتها وبدأت تزداد شحوباً وهزالا يوماً بعد آخر ، حتى فاجأها الموت وابنها ايب لم يعدُ التاسعة من عمره .

فقطع الغلام وأبوه شجرة كبيرة صنعا منها تابوتا وضعا فيه المرأة العزيزة عليها ، وأنزلاه في هوّة حفراها في قلب الغابة .

وأمضّ ايب أن تموت امه التقية الصالحة ، دون أن يصلي عليها امرؤ يحسن الصلاة ، فكتب بمشقة كبيرة كتاباً ساذجاً الى مبشر كان يتردد عليهم في ولاية كنتاكي ، وارسله اليه مع احد الباعة المتجولين ، مناشداً اياه ان يأتي للصلاة على ضريح امه ، فلبى الكاهن الدعوة بعد شهور عديدة . وكان ذلك الكتاب أول رسالة كتبها ابراهيم الصغير.

في معترك الحياة

•

شعر توما لنكولن أنه لن يستطيع الحياة وحيداً مع ولديه الصغيرين . فلما انقضت مدة الحداد ، تغيب عن المنزل بضعة ايام ثم عاد مع امرأة صبية قال لأبراهيم واخته إنها امهما الجديدة ، فاستقبلها الطفلان بحفاوة وابتهاج . وكانت السيدة لنكولن الجديدة ، أرملة ذات ثلاثة أولاد ، ولكنها كانت أحسن حالاً من زوجها ، فحملت الى بيتها الجديد بعض الأثاث والى ولديها الجديدين بعض الثياب . ولم تلبث ان أدخلت على هذا البيت شيئاً من التجديد والتحسين ، وأقنعت زوجها بأن يلحق به مطبخاً وزريبة للماشية ، حتى أضحت « مزرعة لنكولن » كما كان يسميها الجيران ، مسكناً مريحاً يحيط به بستان جميل ، ويشرف على غابة غناء تتردد فيها من الفجر الى الغروب ضربات فؤوس الحطابين .

وكانت هذه المرأة ذكية الفؤاد رقيقة العاطفة ، فأحسنت رعاية ولدي زوجها ، وعنيت عناية خاصة بابراهيم لما توسمت فيه من النجابة ، فشجعته ووجهته وقوّت فيه اعتزازه بنفسه وثقته بالمستقبل . وكانت قضية الثقافة ، في ذلك الوسط الذي ينمو فيه ابن النجار ، قضية معقدة لا حلّ لها ، حتى انها لم تعد من الهموم التي تشغل أذهان

السكان ، والمسائل التي تحتل مكاناً من احاديثهم اليومية . لكن الباحث يستطيع ان يؤكد ان هدف ابراهيم لتكولن ومثله الأعلى ومعنى حياته ، في تلك الحداثة البائسة ، كانت تنحصر جميعاً في كلمة واحدة هي المعرفة .

كان أحب شيء الى قلب ذلك الخطاب الصغير ، أن يزور أباه جمهور من الجيران الذين لا ينقصهم الذكاء الفطري وان كانوا قد حرموا التعليم الرسمي ، فيتحدثوا عن العالم الرحب ، ويروي كل منهم اقاصيصه واختباراته ، ويتناقشوا في الدين والسياسة والمرأة وهو قابع في زاوية الغرفة ، يصغي اليهم بكل جارحة فيه ، لا تفوته كلمة واحدة مما يقولون ، يفهم منها ما يستطيع فهمه ببداهته ، ويستعيد ما لا يفهمه بعد ذهابهم ، وهو مستلق على فراشه ، مستغرق في التفكير ، وملايين النجوم المطلة على الغابة العميقة تساهره من نافذة الكوخ وتناجيه بعيونها الملهمة البراقة .

ولقد اتيح لأبيب أن يختلف أحياناً ، في ولاية كنتاكي وفي ولاية أنديانا ، الى تلك المدارس المتنقلة التي كان يديرها معلمون رحالون لا يحسنون في الأغلب سوى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . ولكنه ما يكاد يتردد عليها بضعة أسابيع أو بضعة أيام ، حتى ينتزعه أبوه منها كي يساعده في اعمال هي في اعتقاده أجدى على الأسرة من الدراسة ، أو ليؤجره كخادم صغير في المزارع المجاورة له ، لا سيما حين أيفع وأصبح فتى حاذقاً قوياً ، بحيث لم يستطع ان يواظب على المدرسة في خلال تسعة اعوام كاملة سوى اثني عشر شهراً .

وكان مقر المدرسة في اكثر الأحيان بعيداً عن بيته عشرة كيلومترات او خمسة عشر كيلو متراً ، فكان عليه أن يسير بضع ساعات ذهاباً وبضع ساعات اياباً ، كي يقضي في المدرسة ساعتين فحسب . ولم تكن هذه المدرسة سوى كوخ من الخشب يجلس الصبيان فيه على الأرض ، ويقرأون جميعاً في كتاب واحد يتداولونه واحداً بعد آخر . وليست تلك الظروف المضنية من العمل المرهق ، والدراسة المنقطعة ، والنصب الدائم ، مما يشجع طفلاً في مثل سنه على التعلم . ولكن رغبة ايب في المعرفة لم يكن ليقوى شيء على اخمادها ، فكان يصل بذكائه وجدّه ، بين تلك الفصول المتفرقة من الدراسة المتقطعة ، ويجعل منها وحدة منسجمة ، ويكملها بدراسته الشخصية الدائبة ، اذ كان كلما أفسحت له حرفته اليدوية وقتاً للعمل الفكري ، وضع الفأس جانباً وعكف على الكتاب جاداً مجتهداً . لقد كان طلب القوت وطلب العلم يتقسمان حياته ، فكان يفرغ للأول ساعات نهاره وللثاني ساعات الليل .

وكان يستعيض عن الورق والحبر والأقلام ، بقطعة من الفحم يخط بها ما يشاء على صفائح من الخشب سوّاها لهذا الغرض ، ثم يغسلها فتعود بيضاء كما كانت . وقد اشترى دفتراً واحداً كان يسجل فيه بخطه الناعم الجميل ، خلاصة ما يقرأه من الكتب التي يستعيرها من هنا أو هناك ويطالعها ليلاً على ضوء المدفأة ، أو ينقل اليه ما يعجبه فيها . وكان أول ما قرأه من الكتب الكتاب المقدس وأساطير ايزوب وروبنسن كروزو ورحلة الحاج .

واتفق أنه كان يقرأ مرة كتاباً عن حياة البطل الأميركي جورج واشنطون ، ثم وضعه بين صفيحتين خشبيتين من جدار الكوخ . وأمطرت السماء تلك الليلة ، فابتل الكتاب . فمضى الفتى إلى صاحبه يروي له حقيقة الأمر ، ويعرض عليه أن يشتغل لديه ثلاثة أيام في حراثة الأرض مقابل ثمن الكتاب . فقبل الرجل ، واشتغل ابراهيم تلك الأيام الثلاثة ، وأصبح ذلك الكتاب الثمين ، رغم ما أصابه من تلف ، ملكاً له ، يقرأه متى شاء ، ويعيد قراءته مرات عديدة ، فيفيد افادة عظمى من دروسه وعبره ، ويعجب اعجاباً كبيراً بشخصية واشنطون ومواقفه في حرب الاستقلال ، وبما تجلى في هذه الحرب من آيات البطولة الفائقة والوطنية الرائعة .

على ان الأب لم يكن ليطمئن الى ما يرى من اقبال ابنه على المطالعة ، فيرميه بالكسل ، ويزعم أنه لا يطيعه حين يعمل معه ، الا قياماً بواجبه وكسباً لمعيشته ، أما رأسه فلا يشغله في الحق سوى تلك السخافات المطبوعة ! ولكن زوجته لا تجاريه في رأيه ، بل انها لتغضب من نعته الكتب بالسخافات وفيها التوراة والأنجيل اللذان يدأب الفتى على مطالعتهما كل صباح . وتقول للرجل : « هوّن عليك ، فلربما أصبح ابنك معلماً ، بل ربما أصبح كاهناً ، فان ذكاءه ، وان دراسته ، وان طيبته ، لتنبىء بأن له مستقبلاً كبيراً . »

وبدأ الفتى يخالط المجتمع ويحاول دراسته بملاحظته القوية وبصره النافذ الى الأعماق . وكان يبدو ، رغم كآبة غريزية متأصلة فيه لعلها وليدة الغابات الرحيبة التي نشأ في وحدتها ، ضحوكاً طلقاً خفيف

الظل ، يحب السؤال والأصغاء ، ويحب التحدث أيضاً ، فهو مجيد الحديث ، وقد أكسبته موهبته في سرد القصص محبة الشعب. وربما كان يتحمس في الجدال احياناً ، ولكنه لم يكن يجادل في باطل . وقد يطيب له المزاح ، الا أنه لا يجرح فيه أحداً ولا يهين امرءاً ، فقد كانت أخلاقه العالية أبرز صفة فيه . وقد وصفه أحد مترجميه وهو في حدود السادسة عشرة من عمره ، فقال : « كان طويل الجسم ، مديد القامة ، عريض الصدر ، ولكنه نحيف تستوقف الانظار نحافته كما يستوقفها طوله ... وكانت هيئته وحشية لشعره الأشعث المغبر ، وهندامه الساذج المتهدل وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الانف بروزاً شديداً فيبدو أضخم من حقيقته . »

وساوره في ذلك الحين ميل الى الكتابة ، فنشر ثلاث مقالات في صحف المقاطعة دعا في الأولى الى الرفق بالحيوان ، وحمل في الثانية على ادمان المسكرات ، أما المقالة الثالثة فقد عالج بها السياسة الوطنية من ناحية جديدة لفتت اليه أنظار أحد المحامين فدعاه الى التمرن في مكتبه . وكانت فرصة نادرة اضطر ابراهيم الى رفضها ، كي لا يحرم اباه المبلغ الزهيد الذي كان يربحه من عمله الزراعي .

الا انه لم يلبث ان اتسع الأفق امامه . فقد صنع بيديه قارباً صغيراً ، وشرع ينقل عليه الناس والسلع بين ضفتي نهر اوهايو . وقد اتفق له يوماً ان حمل بعض المسافرين على قاربه من الضفة الى مركب تجاري في عرض النهر ، فنقده أحدهم قطعتين من الفضة

تساويان ريالاً ، فبلغت دهشته لها وفرحه بهما حداً عظيماً . وقد تحدث الى صديق له وهو رئيس للولايات المتحدة ، عن الاثر الذي تركته تلك الحادثة في نفسه ، فقال : « لم اكد اصدق عيني ! ربما رأيت ذلك أمراً تافهاً ياصديقي ، أما انا فاني اعدّه من أهم الحوادث في حياتي . لقد كان عسيراً عليّ أن اصدق اني وأنا ذلك الفتى الفقير ، قد كسبت ريالاً في أقل من يوم ! ان الدنيا اتسعت في ناظري وبدت لي اكثر جمالاً ، وازداد املي في المستقبل وثقتي بنفسي . »

ثم عهد اليه أحد التجار وهو في التاسعة عشرة ، ان يحمل على مركب بضاعة له الى اورليان الجديدة ، فيبيعها هناك ويعود بثمنها . وقد اختاره التاجر لهذا العمل لما عرف من استقامته وذكائه ، فقام به على أحسن وجه ، ولكنه تعرض فيه الى خطر كبير اذ سار المركب على ضفة المسيسيبي فهاجمه الزنوج ليسلبوا ما فيه من بضائع فهمّ معاونه باطلاق النار عليهم ليردهم واحداً بعد آخر ، ولكن لنكولن منعه من ذلك ، واستطاع انقاذ المركب .

وفي اثناء قيامه بهذه الرحلة التجارية ، وهي اول عمل خرج فيه عن نطاق الناحية الريفية التي يعيش فيها ، واتصل بواسطته بالعالم الرحب الذي طالما تشوق الى معرفته عن كثب ، اتيح له أن يشاهد عشرات المراكب تحمل قوافل الرقيق المكبلين بالقيود كقطعان من الوحوش ، فأثارته هذه المشاهد المخوفة وبعثته على التفكير الطويل في النظام الغاشم الذي يبيح هذا الضرب من الهوان والظلم .

وكانت اورليان الجديدة أول مدينة تطأها قدمه ، فأخذته حركتها المستمرة وضجتها الصاخبة ، وبهره النعيم الذي ينغمس فيه الرجال المترفون والنساء الانيقات البارعات ، ولكنه رأى الى جانب ذلك كله سوقاً للرقيق ، فشاهد ثمة رجالاً يفصلون عن ازواجهم تحت ضرب السياط ، وعذارى يُقَدْن من شعورهن ليبعن بيع السلع ، وامهات يتلوين من الألم المجنون لانتزاع اطفالهن من احضانهن .. رأى ذلك الشابّ الذي كان يدعو الى الرفق بالحيوان ، هذه الآلامَ الرهيبة المذلة التي يعانيها الانسان ، فانكفأ من تلك السوق الملعونة وقد شعر بالنقمة والخزي والعار ، وقال لصحبه في المركب : « لئن اتيح لي يوماً ان احطم هذه التجارة ، فلأحطمنها بلا اشفاق ! »

الحب الاول

•

في ذلك العالم البكر يومئذ ، الفائض بالخير والثراء ، كان في وسع كل مغامر مقدام ان يجد متنفّساً لأمله وميداناً لطموحه . وكان من الشائع ان الفتى لا يكاد يبلغ أشدّه ، حتى يهجر أسرته ويذهب للبحث عن الثروة ، أو ليكسب كفاف يومه على الأقل .

واذا كان ابراهيم لنكولن قد تأخر عن انتهاج هذه السنة ، فذلك لأن اباه لم يوفق في أعماله لتقاعسه واهماله ، بحيث وجد نفسه بعد أن قضى في خليج الحمامة الصغيرة خمسة عشر عاماً ، فقيراً بائساً كعهده الأول ، مضطراً الى أن يهاجر من جديد الى ولاية ايلينويز لعله يجد فيها حظاً أوفر ، فباع المنزل الذى تكبد في سبيله كثيراً من الجهد والعناء ، ونهد الى هناك فبنى لأسرته كوخاً صغيراً ، وعاود كفاحه المرهق في سبيل العيش . وقد ساعده ابراهيم في نقل الأسرة وبناء الكوخ ، وحرث له الارض المجاورة له . ولما اطمأن بعض الشيء الى المصير الذي صار اليه ، بدأ يفكر في نفسه ومستقبله . وما لبث أن غادر أهله ليشق طريقه في الحياة ، وهو في الحادية والعشرين سن المغامرات والأحلام .

ولقد كانت تلك الطريق شاقة وعرة قاسى فيها الاهوال

الشداد . فاشتغل خادماً في عدة مزارع ، واشتغل في بناء المراكب الشراعية وفي قيادتهـــا ، وعبّد الطرق ، وقطع الأشجار ، ونشر الاخشاب ، وسيّج الحدائق ، وأصبح بائعاً متجولا في القرى ، ثم استخدم صانعاً لدى أحـــد العطارين . ولم تستطع الشدائد التي واجهها ، والتجارب التي أخفق فيها ، أن تثبط من عزمه وتحدّ من طموحه ، بل كان يستقبلها بوجه طلق وقلب مرح وايمان قويّ بالغد ، فيقهرها ويظهر عليها ، وكان خلقه النبيل وظرفه الحلاب وطيبته العظمى ، تحبب الناس به وتكسبه الاصدقاء الخلّص في كل وسط جديد . إلا ان أمانته كانت أعظم صفـاته المحببة اليهم حتى صار يعرف بينهم باسم ايب الأمين .

واتفق له ، في خلال هذه الفترة العاصفة من حياته ، أن اضطره الفقر الى التطوع في فرقة من المليشيا تألفت لمحاربة زعيم هنـــدي جعل همه الاعتداء على السكان البيض الآمنـــين حتى لقب بالصقر الأسود . وكان ينبغي لهذه الفرقة العسكرية الصغيرة ان تختار من بين اعضائها قائداً لهـــا فاختارت ابراهيم لنكولن لتلك المهمة ، فكان ابتهاجه عظيما بالثقة التي محضه اياها رفاقـه ، بل كانت تلك الساعة كما قال فيما بعد من أعظم ساعات حياته .

ولم يتح لهذه الفرقة ان تقاتل الصقر الأسود ، فقـــد ظفر به حلفاؤها قبل أن يأتي دورها في القتال . وكان كل ما عرض لها من الأحداث ، ان زنجياً أحمر من رجال الصقر الأسود ضاق باستبداد زعيمه ذرعاً ، فهرب من جوره والتجأ الى عسكر خصومه . فلما شاهده رجال الفرقة وقد طال انتظارهم ونفـد صبرهم ، فرحوا به

صيداً يهبط اليهم من غير عناء ، وانقضوا عليه يربدون الفتك به ، واذا بابراهيم لنكولن، ذلك الرجل الذي قتل الهنودُ الحمرُ جدّه وشتتوا أسرته وشردوا أباه ، يقف من دونهم ، ويحمي الزنجي بصدره ، معرّضاً بنفسه الى الخطر في سبيل انقاذ تلك الحياة الانسانية . وقد استطاع انقاذها بعد جهد كبير .

وفي غمرة ذلك الكفاح الذي كان ابراهيم لنكولن يخوضه في سبيل قوته اليومي ، كان لا ينقطع عن مواصلة كفاحه في سبيل المعرفة . فلم يكن الكتاب ليفارقه أبداً ، فهو رفيقه ومعلمه ، يقرأه على الطرق الطويلة التي يجتازها في تنقله من قرية الى اخرى، ويقرأه اذا جلس ليستريح في ظل صخرة او شجرة ، ويقرأه في الليل كلما نفض يديه من عناء العمل وخلا بنفسه يحاورها ويناجيها.

لقد كان يريد ان يصل ... وكان واثقاً من أنه سيصل ... ولكن الى أين ؟ انه لم يكن ليدري على وجه اليقين ماذا ينشد ، والى أين يقصد . ولكنه كان قويّ الأحساس بكفايته ، عارفاً بالمواهب التي تزخر في نفسه . وكان يشعر بميل ملحّ الى الكفاح الوطني ، لأنه يرى فيما حوله ، على قلة معرفته ببلاده ، كثيراً من النقائص والمفاسد والمظاهر التي تجب مكافحتها .

وفي سنة ١٨٣٢ شغر أحد مقاعد المجلس التشريعي في ولاية ايلنويز ، فرشح ابراهيم لنكولن نفسه لهذا المنصب . مدفوعاً بطموحه وجرأته العظيمين . وخطب في جمهور من الناخبين فقال لهم بصراحته المدهشة : « أزعم انكم تعرفون من أنا . أنا ابراهيم لنكولن ببساطة . وسياستي قصيرة عذبة كرقصة المرأة العجوز .

فاذا ما انتخبت فشكراً لكم ، واذا لم انتخب فما أهون ذلك عندي ! » ولم يزد على هذا شيئاً. فاقترع له ستمائة شخص منهم كلهم من معارفه في بلدة نيوسالم ، ولكن هذا العدد لم يكن كافياً فأخفق في الوصول الى المركز الذي يريده .

ومثة اخفاق آخر اصابه على أثر ذلك . فقد شارك رجلاً يدعى بيري في تأسيس حانوت للتجارة في قرية نيوسالم مقدماً في سبيل ذلك كل ما اقتصده من مال . ولكن بيري كان سكيراً مدمناً ومسرفاً متلافاً ، فمات بعد شهور مخلفاً لشريكه فيضاً من الديون . ولم يكن في وسع ايب الأمين وفاء هذا الغرم الذي أورثه صديقه اياه ، فوعد الدائنين بتسديده اقساطاً ، وضاعف عمله وجهده كي يبر بذلك الوعد الثقيل .

وأراد اصحابه أن يساعدوه دون ان يجرحوا كرامته واباءه ، فسعوا في تعيينه وكيلاً لمكتب البريد في قرية نيوسالم . فكان هذا العمل بدء عهد جديد في حياة ابراهيم ، اذ وفّر له الوقت اللازم للدراسة ، ويسّر له السبيل لقراءة كثير من الصحف . وذات يوم وقع في يده كتاب في علم المساحة فدفعه الفضول الى تصفحه ، ثم اكب عليه يطالعه باهتمام ، حتى ألمّ بأصول هذا الفن ، وبدأ ينتفع منه في تخطيط الارض في ناحيته ووضع التصاميم للطرق والجسور الجديدة فحسنت حاله بعض الشيء .

وفي هذا العهد من حياة لنكولن ، تشرق صفحة رائعة ومؤثرة تلمس بقبس الشعر والحب والحنان ، ذلك القلب الكبير الزاهد ، العميق الحزن ، الذي هزّته كثير من العواصف وعذبته كثير

من الآلام .

كان يطرق سمعه بين يوم وآخر ، من نافـــذة مكتب البريد ، صوت رقيق يسأله بعذوبة : « هل لديك رسالة لي يا سيد لنكولن؟» ثم يطل على الباب وجه فتاة رائعة الجمال ممشوقة القد ، كان شعرها الذهبي ينطوي على شعاع من الشمس ، وتتألق في وجهها الأبيض الوردي نضارة سنيها الثمانيـــة عشرة . ثم تدخل تلك الحجرة التي تتكدس فيها اكوام الصحف والكتب ، وتتوزع فيها الاوراق هنا وهناك ، لأن ابراهيم كان دائماً بحاجة الى قليل من الفوضى فيما حوله كي يستطيع العمل براحة واطمئنان !

فاذا ما طالعه ذلك الوجه المشرق ، اضطرب كطالب فوجيء وهو يرتكب ذنباً ، والقى من يده كتاب الحقوق الذي بدأ يدرسه ، وعبثت اصابعه الهزيلة بشعره الأسود المبعثر ، وأجاب وهو ينهض من مقعده : « سأرى ذلك ايتها الآنسة روتليدج » .

ثم يقبل الى صندوق الرسائل يبحث فيه ، وهو يعرف مسبقاً أنه لا يحتوي رسالة باسمها ، ولكنه يغالط نفسه متمنياً لو أن يده تعثر بضالتها فيهتف فرحاً : « هوذا ايتهـا الآنسة روتليدج ! انه كتاب من نيويورك » . الا انه كان يبلغ آخر الرسائل التي يقلبها دون ان يجد ما يبحث عنه ، فيرفع عينيه الرماديتين الوديعتين الى العينين الصافيتين اللتين تتبعان بقلق كل حركة منـه ، ويقول : « ليس هناك من شيء هذا اليوم ايتها الآنسة » ويلاحظ الشحوب الذي يشيع في وجه الفتاة حين تسمع جوابه ، فيستطرد باستعجال وبابتسامة مشجعة : « ان الرسائل تتأخر كثيراً حتى تصل . . وهي

تبقى احياناً اسابيع عديدة في الطريق .. ربما وصل الكتاب الذي تنتظرينه في البريد المقبل » . فتجيب الفتاة على ابتسامته المشجعة بابتسامة خفيفة ، وتهم بمغادرة المكتب ، ثم تعود ادراجها وكأنها قد تذكرت امراً ، فتخرج ظرفاً كانت تخفيه في صدرها ، وتناوله اياه باستحياء ، وهي تقول : « ارجو ارسال هـــذا الكتاب الى نيويورك في البريد المقبل . » فيجيب ابراهيم بمودة صادقة : « كوني مطمئنة ايتها الآنسة .. ان كتابك سيرسل دون تأخير » . ولكنها ما تكاد تغادر المكتب ، حتى يلقي نظرة على الرسالة التي تركتها بين يديه ، فيقرأ على غلافها هذا الاسم الذي لا يتغير « السيد جون ماك نيل في نيويورك .. » فتتشنج قبضتاه شأنه كلما اعترته سورة الغيظ ، ويطيل التأمل في ذلك الخط الناعم الصبياني ، ويستسلم الى نشوة حالمة كأنه يحس الكلمات الرقيقة الحلوة واعترافات القلب المحب التي ينطوي عليها ذلك الظرف الصغير ، فيتحول غضبه الى حنان ، وترتسم على شفتيه ابتسامته الكئيبة الطيبـــة ، ويتمتم : « لو كانت هذه الرسالة موجهة الي ..! » ثم ينهض فجـــأة فيضع الرسالة حيث يجب أن تكون ، ويعود الى مطالعة كتابه .

كانت تلك الفتاة اكبر ابناء جيمس روتليدج الطحان المثري وأحد الوجوه البارزة في تلك الناحية . وكان هذا الرجل أول من مد يد المساعدة الى ابراهيم لنكولن حين قدم الى نيو سالم خاوي الوفاض لا نفوذ له ولا حماية يستظل بها . فقد كان رئيساً لنـــادٍ يختلف اليه رجال الناحية فيتناقشون في السياسة ، ويستعرضون شؤون الاقتصاد والاجتماع . فانضم لنكولن الى هـــذه الجماعة ،

ودأب على حضور اجتماعاتها ، حتى كاد لا يتخلف ليلة واحدة عن النديّ . ولاحظ روتليدج اهتمام الشاب بالأبحاث التي يتساجلون فيها ، فدعاه يوماً الى الكلام في موضوع عيّنه له ، فاذا به يلقي خطاباً أدهش الحاضرين بما تضمنه من الآراء الناضجة والنظرات الحكيمة ، وما دل عليه من الدراسة العميقة والاطلاع الواسع ، فأحاطوا به معجبين مهنئين ، ودعاه روتليدج الى تناول الغداء معه في اليوم التالي .

وقد حضر المأدبة عدد كبير من شخصيات ايلينويز وكرام سيداتها ، ولكن ابراهيم لم يستوقف انتباهه ولم يثر اهتمامه سوى ابنة المنزل الحلوة الشقراء التي كانت تروح وتجيء في ثوبها الازرق ، بهية الطلعة ممشوقة القوام رشيقة الحركة ، تقوم بخدمة المدعوين وتنشر حولهم جواً رائعاً من البهجة والمتعة بجمالها ومرحها ونضارتها . وقد راعت لنكولن الذي لم يسبق له ان سمع قهقهة امرأة طوال طفولته ويفاعته القاسيتين ، انوثة هذه الصبية الممراح وصوتها الشبيه برنين الاجراس الفضية ، فمال نحو جاره على المائدة يسأله : « ما لهذه الفتاة سعيدة الى هذا الحد ؟ » فأجابه الرجل مبتسماً : « انها مخطوبة الى جون ماك نيل المثري الكبير الذي قدم حديثاً الى الناحية واشترى اراضي واسعة فيها ! » .

وطفق ابراهيم يختلف الى دار روتليدج بدعوة من صاحبها ، فيستقبل بحفاوة حارة ومودة خالصة ، اذ أحبه اهل الدار جميعاً ورأى فيه كل فرد منهم صديقاً له يؤثره على الآخرين . والواقع انه من اجل آنا كان يمسك للجدة غزلها لتلفّه بصبر عجيب ، ومن اجلها

كان يبدي اهتماماً كبيراً بأسعار الطحين كلما حدثه الأب عن ارتفاعها او هبوطها ، ومن اجلها كان يعطي اخاها دروساً في مبادي العلوم ، ويصنع لأخوتها الآخرين لعباً من خشب ، ويهز سرير الطفل الرضيع ، ويداعب الكلب الرمادي العجوز . ومن اجلها خصوصاً كان يروي قصصه للاسرة حول المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة ، وقد أحاط به الجميع مأخوذين بالمتعة الفنية التي يفيضها عليهم ، بينما النهر يهدر في الخارج ، وآنا تحوك او تخيط في زاوية قريبة ، وهي تصغي الى حديثه بلهفة ، وترسل اليه بين حين وآخر شعاعاً حاراً ينفذ الى قلبه العميدمن عينيها الزرقاوين.

لقد كانا صديقين حميمين ، ولكن آنا كانت مخطوبة الى رجل تحبه ، وهي سعيدة بهذا الحب فخور به ، ولم يفكر لنكولن لحظة واحدة في ان يعكر صفو تلك السعادة البريئة . وفي ذات يوم حدث ما لم يكن ليهجس في بال . فان جون ماك نيل ، قد باع فجأة الاملاك التي اشتراها ، وغادر نيو سالم على ان يعود قبل التاريخ المعين ليوم الزفاف . ولكن الايام تعاقبت في أثر الايام ، ولم يعد جون ماك نيل ، ولم يرسل الى خطيبته كتاباً ينبئها فيه بالاسباب التي تعوقه عن العودة ، فقلقت آنا وساورتها الظنون ، ولم تعد أغنيتها لتمتزج بصوت الطاحونة في بهجة الصباح او حنين الغروب.

وفي هذه الايام الحزينة اعتادت الفتاة الحضور الى مكتب البريد تضع فيه رسائلها المفعمة بعتاب المحبة الوفية ،وتنتظر عبثاً أن تتلقى عنها جواباً من الحبيب .

وبعد اسابيع عديدة تسلم ابراهيم رسالة من نيويورك باسم الفتاة،

فهرع يحملها الى صاحبتها المشوقة ، وما كاد يسلمها اياها حتى غادرها لتستمتع بالسعادة التي تنتظرها كما يحلو لها دونما رقيب . ولكن لم تمض ايام حتى بدأ يشاهد آنا تسير في اروقة الطاحونة شاحبة صامتة كالشبح ، ولاحظ انها انقطعت عن زيارته في مكتب البريد لتودع فيه رسائلها او لتسأل عن رسائل صاحبها . فأدرك ان ذلك الرجل الانيق الجميل الذي عقدت عليه الفتاة آمالها ، قد اعلنها القطيعة في تلك الرسالة المشؤومة التي حملها اليها بنفسه .

وما لبثت نيو سالم وجوارها ان اخذت تتهامس بحديث الخطبة التي نقضت ، والرجل الذي خان عهده . وعلم الجميع ان جون ماك نيل كان رجلا مشبوهاً تطارده العدالة ، وان الاسم الذي عُرف به في نيو سالم كان اسماً مزوراً يتستر به . وحاولت الالسن ان تلوك سيرة روتليدج الذي منحه ثقته قبل ان يستقصي أمره ، ومسلك الفتاة التي أحبته وأخلصت له .

بيد ان ابراهيم لنكولن لم يتنكر للاسرة المنكوبة ، ولم يتخل عن الفتاة المخدوعة ويتركها بين براثن الوحدة القاتلة . والى جانب العبادة الصامتة التي كان يتوجه بها اليها ، نشأت شفقة رحوم ، وانبثق أمل ضعيف ، متردد ، حيران ... أمل بتعزية آنا ، وحملها على نسيان من خدعها ، وادخال السعادة الى قلبها بالحنان والحب . ولم يكن ابراهيم على شيء من الجمال ، فقد كان كما يصفه مؤرخوه « مديد القامة ناحل الجسم منحدر الكتفين صغير الرأس ، ذا يدين وقدمين تدهش الناظر ضخامتهما ، وقسمات نابية دميمة » . ولكنه بدأ يغزو قلب الفتاة بالعطف الذي يغمرها به ، وبالاخلاص الذي يدفعه

لتسليتها من همها اللاعج ، وباحاديثه الممتعة التي ينقلها الى عالم رحب لم تألفه من قبل . فسكنت اليه واستراحت لصحبته ، وشرعت ترافقه في النزهة على ضفاف النهر ، فيروي لها آلام ماضيه وآمال مستقبله. وهي كلما ازدادت معرفة بنفسه الكبيرة ازدادت ميلا اليه وتعلقاً به.

واصبح لنكولن يحلم ببناء عش رغيد للطائر الجريح الذي لاذ بحبه . فبدأ يستعد لنيل إجازة الحقوق ، متابعاً في الوقت نفسه العمل في الحقل السياسي . وشغر في تلك الايام مقعد جديد في مجلس ولاية ايلنويز ، فرشح نفسه له ، وقام برحلة انتخابية كبدته كثيراً من الجهد والعناء ، ولكنها اوصلته الى بغيته المنشودة إذ أسفرت الانتخابات عن فوزه بالنيابة .

ولما اطمأن ابراهيم الى مستقبله ، فاتح آنا بحبه فاذا لديها مثل الذي لديه ، واذا بهما يتواعدان على الزفاف متى جاز امتحان الحقوق ونال إجازة المحاماة. وكان عليه ان يسافر الى فانداليا عاصمة الينويز لحضور جلسات المجلس ، فاشترى حلة جديدة وسافر الى حيث يدعوه الواجب ، بيد انه كثيراً ما كان يعود لزيارة خطيبته او يكتب لها الرسائل الطوال محدثاً إياها عن حبه ، وعن سعادته ، وعما يعده للمستقبل من مشاريع عظيمة .

على ان الفتاة ما كادت تفارقه ، حتى تداعت قواها ثانية ، وبدأت تشحب وتذوي باستمرار ، كزهرة انتزعت من الارض التي تغذيها والماء الذي يرويها . ولقد كانت تريد ان تعيش لتسعد حبيبها وتكون سعيدة معه ، الا ان هذه الارادة القوية لم تصمد طويلا امام الداء الواغل ، واذا بابراهيم يتلقى يوماً رسالة تنبئه بان آنا

مريضة مشرفة ، وانها تهذي باسمه وتلح على ان تراه ، فيهرع الى نيوسالم وجلا مرتاعاً ، لكنه لا يراها الا لكي يودعها الوداع الاخير.

كان اثر الفاجعة في نفس لنكولن عظيما ، حتى خيل لاصحابه أنه فاقد بها رشده . فقد هام على وجهه أياماً كاملة ، تائهاً في البراري وعلى ضفاف الانهر ، وفي الاماكن الحبيبة التي كانت تضمه وآنا فيتناجيان فيها ساعات طويلة . وكثيراً ما شوهد في المقبرة ، معانقاً الضريح الرطب ، مردداً : « ان قلبي هنا ... مدفون معها ! » .

ولم يتعزّ لنكولن عن حبيبته ابداً ... ولقد تضاعفت منذ تلك السنة كآبته الفطرية ، المنطوية تحت مرحه الظاهر ، وهو لم يكن في الأغلب الا مرحاً مصطنعاً . وانطبعت على قسمات وجهه سمات ألم عميق . واصبح عرضة لنوبات سوداوية تعتريه بين حين وآخر فتتركه منهوكا محطماً . وقد قال مرة لاحد خلانه : « ربما ظهر مني حين أكون بين الناس انني استمتع بالحياة في نشوة ، ولكنني اذا آويت الى عزلتي أخذتني غالباً حال من الهم لا اجرؤ معها على ان احمل مبراة ! »

كان ابراهيم لنكولن حينذاك في السادسة والعشرين من عمره . في تلك السن الباكرة فقد لنكولن حبه ، وبقي للنكولن الانسان واجبه . بقي له امل النضال في سبيل عالم أحسن . بقي له السعي لتحقيق قوله :

« ما وقعتُ على شوكة عيناي ، الا حاولتُ اقتلاعها لاغرس مكانها وردة ، ما طاب للورد منبت الشوك .

ألا ما أصعب ان يَغْرُبَ الانسان ، تاركاً وراءه هذا العالم ، ولم تجعله حياته العابرة ، خيراً مما كان عليه وأسمى . »

محامي سبرنغفيلد

•

بعد عامين من وفاة آنا ، قدم ابراهيم لنكولن امتحان الحقوق ونال إجازة المحاماة . ولم يكن في وسعه أن يمارس هذه الحرفة في بلدة صغيرة مثل نيوسالم فارتحل عنها الى مدينة سبرنغفيلد . وقد غادرها في سنة ١٨٣٧ كما دخلها قبل ست سنوات ، خالي الوفاض، لا يملك سوى كيس من الكتب والثياب . الا أنه ما لبث أن وجد عملاً لدى محام متواضع كان يستخدمه في كل شأن من شؤونه ، فأخذ يتقدم تقدماً سريعاً في مهنته الجديدة ، تساعده في ذلك ملكته الخطابية القوية ، وحرصه الدائم على استكمال ثقافته وتوسيع أفق معرفته ، حتى أصاب حظاً من النجاح غير يسير .

وسرعان ما التمع اسم لنكولن في عالم المحاماة ، وعُرف خطيباً أخاذاً قويّ الحجة متدفق البيان ، ومحامياً عدلا لا يدافع إلا عن حق مضاع أو جناح مهيض . وقد وجه مرة الى أحد المحامين الناشئين ، نصيحة تدل على مسلكه ، قال فيها : « إعمل على أن تكون محامياً أميناً ، فاذا لم تستطع أن تكون أميناً وانت محام ، فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً » .

ومما يؤثر عنه أنه ترافع مرة في قضية ، فتبين له أثناء دفاعه

وحماسته فيه ، أنه إنما يدافع عن مجرم حقيق بالعقاب لا عن متهم أهل للتبرئة ، فألقى باوراق القضية في ردهة المحكمة ، وغادرها الى بيته متفجر الضمير مهتاج الاعصاب، ثم كتب الى رئيس المحكمة كتاباً يعتذر له فيه عما كان منه ويقول : « لقد كانت يداي ملوثتين ، فعدت أدراجي الى كسر بيتي لأطهرهما من الادران » .

وجاءه رجل ليقيم قضية على آخر يطالبه فيها بستمائة ريال ، فلما درس أوراقه وأنعم النظر فيها ، قال له : « إن في مقدوري أن أربح لك قضيتك، وفي وسعي أن أحصل لك على ستمائة ريال انكب بها اسرة هائئة نبيلة . ولكنني لن أرافع في قضيتك، ولن تمس يدي نقودك . لقد أتيت اليّ تسألني النصيحة ، واني لأسدي اليك نصيحة لا أسألك عليها أجراً ، وهي أن تذهب من فورك الى بيتك ، وتبحث عن سبيل آخر يكون شريفاً ونزيهاً ، كي تصيب من ورائه الستمائة ريال التي ترجوها ! »

وكان ذا نظر ثاقب في إدراك الحقائق المحيطة بالقضايا التي يرافع فيها ، وتبديد الغموض الذي يكتنفها . ومن أقواله المشهورة : « اذا استطعت أن اجرد القضية من جميع ملابساتها المعقدة ، وأبسطها أمام المحكمين جلية واضحة فقد ربحتها » . ومن القضايا التي رافع فيها وأكسبته شهرة واسعة ، قضية شاب اتهم بقتل آخر في اثناء مشاجرة ليلية ، وأكد أحد الشهود بعد أن حلف اليمين القانونية ، أنه رآه بعينه وهو يوجه الى الضحية الطلقة النارية القاتلة. وكادت هذه الشهادة تدين المتهم وتنزل به شديد العقاب . ولكن لنكولن ينهض فجأة ويسأل الشاهد : « كيف استطعت ان تتبين

دقائق الفاجعة وقد حدثت ليلاً ؟ » فيجيب الرجل : « لقد كان القمر ساطعاً فاستطعت أن أرى في نوره كل شيء » واذا بالمحامي البارع يخرج من جيبه تقويماً يتضمن الأشارات الفلكية ، ويتجه نحو القضاة قائلاً : « ان الشاهد يكذب ايها السادة ، ففي الساعة التي وقعت فيها الجريمة من تلك الليلة، لم يكن القمر قد بزغ بعد .. » فدهش الحاضرون ، وفي مقدمتهم شاهد الزور ، لهذه المفاجأة العظيمة ، وأطلق القضاة سراح المتهم البريء .

وكان سكان ايلينويز موزعين على مسافات شاسعة من الأرض فكان ثمة محاكم متنقلة يطوف فيها القضاة والمحامون من مكان الى آخر لسماع الشكاوى وتحضير المرافعات ، وقد جرت العادة ان يقوموا في كل ستة أشهر برحلة على الجياد تسمى « الدائرة » يطوفون فيها على جميع قرى الولاية ، فيعقدون الجلسات القضائية في المدارس أو في بيوت المتقاضين ، ثم يبيتون في الفنادق ان كان ثمة فنادق ، أو دور الفلاحين . وقد اشترك لنكولن في عدة رحلات من هذا القبيل ، فكان لها اثر كبير في نفسه وفي تطوره الفكري ، لما عرف فيها من حياة بلاده وما خبر من هموم شعبه . كما اكسبته شهرة ومحبة كبيرتين لدى أوساط واسعة من مواطنيه الذين كانوا يسمونه ابب العجوز ، وهو لقب جديد بدأوا يطلقونه عليه باكراً لكثرة التجاعيد التي كانت مرتسمة على وجهه .

وكما اشتهر لنكولن في المحاماة ، اشتهر في ميدان السياسة وتبوأ فيها مركزاً مرموقاً ، لما اتصف به من صفات الرجولة ،

والتمسك بقويم المبادىء ، والحب العظيم لوطنه وشعبه . فتجدد انتخابه لمجلس ولاية ايلينويز ثلاث مرات متواليات في سني ١٨٣٦ و ١٨٣٨ و ١٨٤٠ ، وكانت له في هذا المجلس مواقف مشهودة في مهاجمة القوانين الرجعية والنظم الاستبدادية والدفاع عن الحرية والديموقراطية وحقوق الشعب على اختلاف أجناسه . وقد قدم للمجلس خلال نيابته الثانية احتجاجاً على نظام الرق وافتراحاً بالغائه في ولاية ايلينويز ، فلم يجد بين الواحد والثمانين نائباً وشيخاً من اعضاء المجلس سوى عضو واحد رضي بان يوقع معه ذلك الاحتجاج على الظلم .

وفي أوائل سنة ١٨٣٧ تعرف لنكولن بفتاة تدعى ماري أوين ، بينما كانت تزور بعض أقاربها في سبرنغفيلد ، فنشأت بينهما صداقة مبعثها التشابه في بعض الميول والاهداف التي ينزعان اليها ، واسترسل كل منهما الى الآخر في أحاديث ودية تفصح عن دخيلة نفسه ، وبدرت منهما في احدى وثبات العاطفة ، بادرة مبهمة كأنها اعتراف بالحب وكأنها وعد بالزواج . ولكن ما تكاد الفتاة تغادر سبرنغفيلد حتى يحس ان تلك البادرة العابرة قد ربطته بقيد ثقيل ، فيستبد به الانقباض والهم ، وتساوره رغبة قوية في التحرر من ذلك الرباط ، فيكتب اليها رسالة رقيقة ينذرها فيها بانها إن تزوجته فانها ستكون فقيرة دون أن يكون في وسعها اخفاء فقرها ، ويسألها هل في وسعها أن تتحمل ذلك في أناة وصبر ؟ ثم يقول : « وقد يكون ما قلته لي بصدد حبنا من قبيل المزاح . ولربما قد اسأت فهمه أنا ايضاً ، وحملته على غير محمله الصحيح . فاذا كان ذلك

كذلك ، فان رجائي اليك ان تنسيه من الألف الى الياء ، واذا كنت جادة فيما قلت ، فأرجوك ان تفكري في الأمر ملياً ، وأن لا تتخذي أيّ قرار ، مهما يكن ، قبل ان تستوفي الموضوع درساً وتمحيصاً . أما أنا فلن أتراجع عما فاهت به شفتاي ، على ألا يكون هنالك أي مانع لديك . على اني انصح لك بأن تظلي بعيدة عني ، وان تقلعي عن فكرة الزواج مني ، فأنت ما تعودت حياة الشقاء والتقتير ، ولعل هذه الحياة أن تكون أشد عسراً مما تتوهمين » .

ثم أعقب هذه الرسالة باخرى قال فيها : « .. من طبيعتي ان اكون صادقاً وخصوصاً مع المرأة . واريد في هذا اليوم ان أكون اكثر صراحة من قبل ، وان انصفك اكثر من قبل ، هذا اذا كان من الانصاف تركك وحيدة . ولكي اسهل الامر واجلو كل لبس وغموض ، أقول لك ان في وسعك أن تطرحي موضوع الزواج جانباً ، وأن تنزعيني من فكرك الى الابد ، اذا ما كنت اشغل حيزاً ما من تفكيرك واهتمامك ، وأن تهملي هذه الرسالة فلا تجيبي عليها . وأذهب الى أبعد من ذلك فأقول : لئن كان في هذا راحة لك واطمئنان لضميرك ، فانا استحلفك أن تفعليه . وإياك أن تسيئي فهم كلامي ، فأنا لا أدعوك الى قطع علاقتنا وفصم عرى صداقتنا . إن هذا الامر لم يخطر لي في بال ، وكل ما اريد أن تفهميه هو ان صداقتنا بعد الان ، تتوقف عليك وحدك . فاذا كانت هذه الصداقة لم تفدك في شيء ولم توفر لك السعادة التي تلتمسين ، فكوني واثقة من انها لن تفيدني أنا أيضا ولن توفر لي السعادة التي اريد . »

وقد أذاع خصومه عنه أنه ملحد ليبعدوا عنه أنصاره الذين يزدادون يوماً بعد آخر ، واستشهدوا على ذلك بمقاطعته للكنيسة . وفي الواقع انه لم يكن ليختلف الى أية كنيسة ، ولكنه برر مسلكه هذا بقوله : « متى سجلت احدى الكنائس على مذبحها أن الصفة الوحيدة التي تتطلبها من رعاياها ، هي تطبيقه للقانون الذي وضعه المسيح في الانجيل اذ قال : « احبب الرب الهك من كل قلبك وكل نفسك وكل فكرك ، واحبب قريبك كنفسك » فحينئذ استطيع الانتساب الى هذه الكنيسة من كل قلبي وكل نفسي . على انه ان كان قد قاطع الكنيسة ، فقد كان يقرأ الكتاب المقدس بمتعة وشغف . وقد قالت زوجه في حديث لها بهذا الصدد : « ان ايمانه بالله كان أشبه شيء بالشعر الحر يجيش في نفسه غير مقيد بوزن اوقافية » .

ولما انتهت مدة عضويته في مجلس ايلنويز للمرة الرابعة رفض أن يرشح لها للمرة الخامسة ، كما رفض قبول منصب حاكم ولاية اوريغون ، لأنه كان يريد توسيع افق نضاله ، ويطمح الى ان يكون نائباً عن ولايته في الكونغرس بواشنطون ، فيحمل الى عاصمة الولايات المتحدة رغبات وطنه الصغير ، ويعنى في الوقت نفسه بصالح الامة والانسانية . وقد رشح نفسه لهذا المنصب فاخفق في الوصول اليه ، الا انه لم يلبث ان ظفر به في سنة ١٨٤٦ وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

وكانت مسألة الرقيق تحتل مكاناً هاماً متعاظماً من حياة الولايات الاميركية ومن سياستها العامة ، وقد شطرت الرأي العام

المرحة الصاخبة تنشدها فيما تقيم من سهرات انيقة وما تؤم من مجالس حافلة ، وكان هو يؤثر الحياة العائلية الهادئة والعمل المثمر والدراسة المستمرة . انما الذي لا ريب فيه ان كلاً من لنكولن وزوجه كان محباً لرفيقه مخلصاً له ، يخصه بعنايته وعطفه ، وقد أنجبا ثلاثة أولاد كان الأب العظيم يغدق عليهما كنوز قلبه ، وهو القلب الذي قالت زوجه عنه « انه كان كبيراً بقدر ما كانت ذراعا صاحبه طويلتين »! ولا ريب ايضاً في أن ماري تود كان لها أثر لا يستهان به في صعود زوجها الى المقام الرفيع الذي تسنمه ، فقد كانت عظيمة الطموح ، وكانت ، كما قال أحد مترجمي لنكولن : « ترى بما يشبه الوحي الطريق المؤدية الى عليا المراتب . وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرئاسة . لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته في ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده الى الطريق السوي ان هو أوشك أن يتنكبها » .

●

وكان اهتمام لنكولن بشؤون بلاده يتضاعف باستمرار ، ونفوذه يتسع في أوساطها السياسية ، فيكثر منافسوه وحساده تبعاً لذلك . وقد حاول أحدهم مرة أن يطعن في كفايته لصغر سنه وكثرة مطامعه ، فرد عليه بأنه أكبر في العمر منه في الاعيب السياسة ، وقال انه في الحقيقة يود أن يرقى ويتقدم ولكنه يفضل الموت على ان يفعل ما فعله ذلك السيد المنافس له ، فيغير مبدأه مقابل ثلاثة آلاف دولار في العام ، ثم يضطر الى اقامة مانعة للصواعق فوق بيته ليحمي ضميراً آثماً من غضب الرب !

وقد أذاع خصومه عنه أنه ملحد ليبعدوا عنه أنصاره الذين يزدادون يوماً بعد آخر ، واستشهدوا على ذلك بمقاطعته للكنيسة . وفي الواقع انه لم يكن ليختلف الى أية كنيسة ، ولكنه برر مسلكه هذا بقوله : « متى سجلت احدى الكنائس على مذبحها أن الصفة الوحيدة التي تتطلبها من رعاياها ، هي تطبيقه للقانون الذي وضعه المسيح في الانجيل اذ قال : « احبب الرب الهك من كل قلبك وكل نفسك وكل فكرك ، واحبب قريبك كنفسك » فحينئذ استطيع الانتساب الى هذه الكنيسة من كل قلبي وكل نفسي . على انه ان كان قد قاطع الكنيسة ، فقد كان يقرأ الكتاب المقدس بمتعة وشغف . وقد قالت زوجه في حديث لها بهذا الصدد : « ان ايمانه بالله كان أشبه شيء بالشعر الحر يجيش في نفسه غير مقيد بوزن اوقافية » .

ولما انتهت مدة عضويته في مجلس ايلنويز للمرة الرابعة رفض أن يرشح لها للمرة الخامسة ، كما رفض قبول منصب حاكم ولاية اوريغون ، لأنه كان يريد توسيع افق نضاله ، ويطمح الى ان يكون نائباً عن ولايته في الكونغرس بواشنطون ، فيحمل الى عاصمة الولايات المتحدة رغبات وطنه الصغير ، ويعنى في الوقت نفسه بمصالح الامة والانسانية . وقد رشح نفسه لهذا المنصب فاخفق في الوصول اليه ، الا انه لم يلبث ان ظفر به في سنة ١٨٤٦ وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

وكانت مسألة الرقيق تحتل مكاناً هاماً متعاظماً من حياة الولايات الاميركية ومن سياستها العامة ، وقد شطرت الرأي العام

شطرين كبيرين والبّت الامة بعضها على بعض . ولم يكن في وسع لنكولن ان يظل بعيداً عن قلب هذه الحركة التحريرية العظمى التي تتمخض بها بلاده . فان الاصوات المعولة والمشاهد الشنيعة التي سمعها وشاهدها في سوق اللحم البشري ، وهو ما يزال فتى أغرّ القلب نقي السريرة ، قد خالطت حياته ووجدانه ، فهي ما تفتأ تتردد في سمعه وتتعاقب امام بصره ، مسممة افراحه ، مروّعة لياليه .

لطالما دعا منذ قدم احتجاجه على نظام الرق الى مجلس النيويز ، إلى محو هذا العار عن امته وعن الجنس البشري ، والى إقرار حقوق اخوته السود المقضي عليهم بأسوأ الاستعباد وأقسى الهوان . ولطالما اغلقت الآذان عن سماع صوته وقبول دعوته ، فعلى أصدقائه أو خصومه بعد الآن ، أن يقفوا مختارين أو كارهين ، موقف التأييد او العداء من قضية اولئك المضطهدين . فان البركان الذي ظل يزجر عشرات السنين سينفجر مرجله ويهز أركان العالم الجديد . وليكونن ابراهيم لنكولن الفكر الملهم واليد العاملة في ذلك الانفجار العظيم .

تجارة الرقيق

•

كان المستعمرون الاسبان والبورتغاليون الذين هاجروا الى اميركا الوسطى لاستيطانها أو لجلب الثروة منها ، يعانون في مطلع القرن السابع عشر مشقة كبرى في العمل في تلك الاراضي البكر تحت الشمس المحرقة . فاقترح واحد منهم يدعى لاس كازاس إحياء نظام العبودية الذي قضي عليه أو كاد منذ مئات السنين . فاستقبل اقتراحه بالبهجة والحماسة من اولئك المغامرين الذين سبق لهم أن أفنوا قبائل باسرها من الهنود الحمر سكان البلاد الاصليين حتى اضطروا من بقي منهم الى الجلاء عن تلك البقاع .

وما لبثت أن تنظمت غزوات كبرى على القارة الافريقية ، تنقضّ على تلك البلاد الآمنة بالحديد والنار ، فتبيد القرى ، وتمثل بالشيوخ والنساء والاطفال ، وتعذّب ذوي الارادة الصلبة من الرجال الذين يدافعون عن عائلاتهم وبيوتهم ، ثم تحشد قوافل لا عداد لها من الزنوج المقيدين بالسلاسل ، وتحشرهم في مراكب خاصة بهم ، ليوسلوا الى الارض الاميركية ، في رحلة طويلة مضنية يموت خلالها المئات منهم فيُلقون طعاماً لما يواكب تلك المراكب الملعونة من الاسماك والحيتان .

فاذا ما وصلت هذه القوافل من المواشي البشرية الى اميركا ، سيقت الى أسواق الرقيق ، حيث تباع بحفنة من النقود الذهبية ، من اناس يريدون أن يعيشوا على حساب الآخرين . ثم يرسل العبيد الى المناجم وحقول الارز ومزارع القطن وقصب السكر ، فيعملون فيها تحت لهيب السوط عملا دائباً منهكاً لزيادة غنى أسيادهم ، ويصبحون مجرد سلع تنتقل من يد الى يد ، تنتزع منهم ازواجهم وبناتهم ، ويباعون متى انحطت قواهم بثمن بخس ، ثم يلقون على قارعة الطريق ليموتوا حين يدركهم العجز ، اذا لم يصرعهم سيدهم في نزوة من نزوات غضبه دون ان يُسأل عنهم لأن له كل الحق في التصرف بهم كما يشاء .

وانقضى على ذلك قرنان عمّ فيهما الاسترقاق المستعمرات الاميركية ، واتسعت تجارة الرقيق حتى كاد يكون لها الشأن الاول في البلاد .

ولما اخذت الرأسمالية الاميركية في النشوء ، وتحررت البلاد من الاستعمار الانكليزي بعد حرب عنيفة ظافرة ، اتحدت الولايات الاميركية في وطن واحد ذي حكومة واحدة وعلم مشترك ، على ان تظل لكل ولاية حريتها في تقرير موقفها من مسألة الرقيق .

وكانت المبادىء الديموقراطية التي نمت بذورها مع نمو الرأسمالية قد وجدت سبيلها الى اعلان الاستقلال فجاء فيه ما نصه :

« اننا نثبت هذه الحقائق البديهية : ان جميع الناس قد خلقوا متساوين ، وقد منحهم خالقهم حقوقاً معينة غير قابلة الانتزاع ، ومن هذه الحقوق : الحياة والحرية والسعي نحو السعادة . ولصيانة

هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس ، فتستمد هذه الحكومات سلطتها العادلة من رضى المحكومين . وان أية حكومة مهما كان شكلها ، اذا اصبحت هدامة لهذه الغايات ، فمن حق الشعب ان يغيرها أو يلغيها ، وينشيء مكانها حكومة جديدة يضع اساسها على ما يبدو له من مبادىء ، وينظم سلطتهـــا على ما يتراءى له من اشكال ، تضمن له السلامة والسعادة . »

وعلى الرغم من ان هذه المبادىء ظلت حبراً على ورق ، لان المساواة التي تنوه بها لم تتحقق بين الابيض والزنجي ، والغـــني والفقير ، والرجل والمرأة ، فانها ادت الى يقظة عامة وتطلع مستمر الى تحقيق هـذه المساواة المنشودة ولا سيما بين الابيض والزنجي لانها كانت القضية الاولى التي يضعهـــا تطور الحياة يومئذ أمام الامة الاميركية الناشئة .

وكان نظام الرق ، هذا الشكل البـدائي من أشكال استغلال الانسان للانسان ، متطوراً في الولايات الجنوبية بنوع خاص ، لانها كانت بلاداً زراعية ، تتألف الثروات فيها من الاراضي الواسعة ، ومن حقول الارز ومزارع القطن وقصب السكر ، التي تحتاج جميعاً ، في ظل النظام الاقطاعي السائد ، الى أيدي الزنوج للعمل فيها ، ولا تحيا بدونهم . فكان لتجار العبيد في هذه المناطق نفوذ كبير وسلطة عليا ، وكانت ارادتهم قانوناً نافذاً في ادارة البلاد وشؤونها السياسية .

أما الولايات الشمالية فكانت قد سارت خطى أوسع في مضمار الحضارة ، وكان الشكل الاقتصادي السائد فيها هو النظام الرأسمالي الناشيء القائم على التجارة والصناعة ، وليس يتفق نظام الرقيق مع

هذا الشكل من أشكال الاقتصاد ، لان العمل في ظله لا يتطلب من العامل القوة الجسدية المجردة ، بل يقتضي أن يكون الى جانبها شيء من البداهة والاختصاص والمهارة الفنية، ولا يمكن ان تتوافر هذه الشروط في الرقيق الذي يعيش في مستوى منحط ويُعامل كالبهائم العجماء . ومن ثم أخذت بعض هذه الولايات تعمد الى الغاء الاسترقاق في بلادها شيئاً فشيئاً ، وكانت ترجو الغاءه ومنع الاتجار بالعبيد في الولايات الاميركية كلها ، كي تتحرر الايدي العاملة فيها، وتتحسن حالة الطبقة الكادحة ، فتجد الصناعة النامية العمال الذين تحتاج اليهم .

وكان لا بد لهذين القسمين الكبيرين من القارة الاميركية، من أن يتنازعا ويصطدما لاختلاف مصالحهما . وقد بدأ النزاع أول الامر ، حين طفق العبيد يهربون من الولايات التي تقر الاسترقاق الى الولايات التي الغته ، فيتمتعون في اراضيها بحق الالتجاء ، ويتحررون من قيد العبودية ، ويجدون شروطاً أحسن للعمل وللمعيشة . ثم بلغ ذلك النزاع أشده حين انتظمت الشمال كله حملة أدبية قوية تطالب بالغاء الاسترقاق من جميع الولايات الاميركية المتحدة .

وفي الواقع ان بذور هذه الحملة كانت تنبت منذ وقت طويل . فمنذ سنة ١٧٧٥ ، أي قبل نشوب الثورة الاميركية، أسس بنيامين فرنكلين جمعية في بنسلفانيا غايتها السعي لالغاء الرق . وما لبثت ان قامت في عدة ولايات شمالية جمعيات اخرى تدعو للهدف نفسه. ثم عقدت هذه الجمعيات مؤتمراً في سنة ١٧٩٤ تبعته مؤتمرات

عديدة في السنين التي تلتها .

ولما بـــدأ التبسط الاميركي يسير نحو الغرب ، هب خصوم الاسترقاق يمانعون في ادخاله الى الولايات الجديدة. وفي سنة ١٨١٨ لما دخلت ايلينويز في الاتحاد الاميركي، كانت في البلاد عشر ولايات تقرّ مبدأ الاسترقاق ، مقابل احـــدى عشرة ولاية تناهضه . وفي السنة التالية تقدمت مازوري والاباما تريدان الانضمام الى الاتحاد، فوضع حينئذ اتفاق مازوري الذي يمنـــع دخول الاسترقاق الى الاراضي الواقعة شمالي الدرجة السادسة والثلاثين والدقيقة الثلاثين، وهو التخم الجنوبي لولاية مازوري ، باستثناء هذه الولاية .

واتخذت مقاومة الاسترقاق شكلاً جدياً عنيفاً في العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، لما برز التصادم الاقتصادي بـــين الشمال والجنوب واستفحل . فظهرت في بوسطن سنة ١٨٣١ جريدة تدعى « المحرر » يحررها رجل انساني يدعى وليم غريسون ، جعـــل همه دعوة الرأي العام الى مقاومة الاسترقاق مقاومة جدية . والتفت حوله جماعة من المثقفين تدين بعقيدته وتنشر دعوته . وقام الكتاب والشعراء يهاجمون الرق ويعددون مساوئه وفي طليعتهم الفيلسوف رالف امرسون . وتألفت جمعيات عديدة جعلت همهـا الاحتجاج على نظام العبودية في عرائض شعبية ترفعهـــا الى الكونغرس ، ومطالبة المجالس التشريعية في الولايات الشمالية بسن القوانين التي تحمي العبيد الهاربين من الجنوب ، ثم طفقت تنظم الحركات السرية لتهريب العبيد الى الولايات التي يصبحون أحراراً فيها .

ووقف المزارعون الكبار من اهل الجنوب ، موقف المعارضة

من هذه الحملة المنظمة المتعاظمة، يشايعهم في ذلك أعضاء الكونغرس والكتاب واساتذة الجامعات ورجال الدين وزعماء السياسة واكثر المثقفين الذين يعيشون في ظل النظام الاقطاعي العبودي وينتفعون منه ويتخلقون بأخلاقه . وكان هؤلاء يحاولون رد هجمات خصومهم وانتقاد حججهم ، فزعموا ان الزنوج لما جيء بهم من افريقيا كانوا في حالة الانحطاط والتوحش وقد أصبحوا في مدة وجيزة في حالة راقية نسبياً ، وقالوا ان الرقيق مهما اشتدت تعاسته فانه يظل أحسن حالاً من العامل الذي يستغل صاحب المصنع اتعابه دون أن يتولى احد امره حين يشيخ او يمرض ، وذهبوا الى ان الله قد أجاز الاسترقاق وأوصى بحمايته اذ قال في وصاياه العشر لبني اسرائيل «لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ... » !

فكرة تجد ممثلها

•

لقد كانت فكرة تحرير العبيد تنمو اذن منذ نادى بها فرنكلين في سنة ١٧٧٥ ، أي قبل مولد لنكولن بنيف وثلاثين سنة ، لكنها لم تتعدّ كونها فكرة انسانيـــة لا تجد صدى مؤيداً الا في قليل من القلوب النبيلة ، ولم تستطع ان تجند الجماهير الواسعة حولها الا لما برزت كحاجة اقتصادية لا يستغني الشمال عنها في تطوره الصناعي المتعاظم . حينئذ اصبحت تلك الفكرة الانسانية قوة مادية فعالة تحرّك ملايين الناس ، ووجدت في نفس ابراهيم لنكولن الكبيرة متسعاً لها فتمثلت فيه وتجسدت في شخصه .

ولم تكن الخطب الحماسية التي كان لنكولن يلقيـــها في مجلس ايلينويز ، والمقالات القيمة التي يرسلها الى بعض الصحف الاميركية ، والدعوة الحارة التي يقوم بها في الاندية والاوساط التي يتصل بها في المحيط الضيق الذي يعيش فيه ، لترضي ضميره وتحمله على الاعتقاد بأنه قد أدى واجبه الوطني والانساني في العمل على تحقيق الفكرة التي استغرقت ضميره . بل كان يعرف ان سعيه في هذا السبيل يجب ان يشتد ، وان النطاق الذي يعمل فيه يجب ان يتسع ، وان الوقت والجهد اللذين ينذرهما له يجب ان يتضاعفا . ومن ثم كان يتطلع الى

النيابة عن ولايته في واشنطن ، لانه كان واثقاً بان صدى دعوته سيكون أقوى وأفعل اذا ارتفع صوته بها من العاصمة الاميركية .

وقد ارتفع صوته حراً ندياً يُسمع الامة الاميركية صيحة الحق اثناء المعركتين الانتخابيتين اللتين خاضتهما البلاد في سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٤ من اجل رئاسة الجمهورية ، اذ تطوع في خلالهما للدعوة الى انتخاب كلي زعيم حزب الهوغ الذي كان يضع تحرير العبيد في برنامجه ، فلم يوفق الى بغيته . ولكن محاولته هذه اكسبته شعبية واسعة لدى انصار فكرة التحرير ، وبدأ الجميع يعدونه من اكبر دعاة هذه الفكرة ، واشدهم حماسة في الدفاع عنها والنضال من اجل تحقيقها .

وكان لنكولن اثناء اقامته في واشطون بعد انتخابه للكونغرس ، يرى رأي العين كيف تمارس تجارة الرقيق في العاصمة الاميركية وفي ظل الكابيتول مقر المجلس التشريعي نفسه . وقد شاهد العبيد يعيشون ، في انتظار بيعهم ، في الزرائب والاسطبلات كالبهائم أو أقل شأناً . فحاول حمل ولاية كولومبيا التي تقع العاصمة فيها ، على الغاء الرق في اراضيها وشراء العبيد الذين فيها وإعتاقهم وتعليمهم حرفة تساعدهم على كسب معيشتهم بشرف . وقد احرز اقتراحه بهذا الصدد أصواتاً عديدة في مجلس الولاية ، لكن المقاومة العنيفة التي قابله بها الجنوبيون وانصارهم ادت الى اهماله ورفضه .

وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، استجوب لنكولن رئيس الجمهورية مباشرة أثناء انعقاد جلسة الكونغرس ،

عن حرب المكسيك التي لم تكن سوى وسيلة لأرضاء مطالب الجنوبيين وزيادة عدد الولايات التي يباح الاسترقاق فيها . وكان استجوابه قوياً عنيفاً قال فيه : « ليذكر الرئيس أنه يجلس حيث كان يجلس واشنطن ، وليجب اذا ذكّر كما كان يجيب واشنطن ، وكما انه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق، والله لا يسمح ان يهرب من الحق ، كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراوغة . فاذا استطاع بعد ذلك ، ان يقيم الدليل على ان الأرض التي سالت عليها الدماء أول ما سالت هي أرضنا ، فاني موافقه فيما يسوق من مبررات . ولكنه ان عجز عن ذلك أو احجم عنه، فاني حينئذ خليق أن آخذ على اليقين ما يقوم في نفسي فعلاً مما هو اكثر من الظن ، فأرى انه يشعر بخطأه وانه يشعر بان الدم الذي سال في تلك الحرب هو كدم قابيل يستصرخ السماء ضده » .

ولكن الاوساط السياسية كانت تؤيد تلك الحرب ، لأنها ترمي الى الحاق ارض جديدة بالولايات الاميركية ، دون التفات الى ان هذا الألحاق يجري بالقوة . فأثار استجوابه ، رغم قوة منطقه في عرض التهمة التي يوجهها الى الحكومة بالصاقه بها جريمة الاعتداء ، حنق رئيس الجمهورية والوزراء على هذا النائب المغمور ، المجهول الامس ، الذي كان بعض زملائه يسمونه ابن الغابات نيلاً منه ، واستنكره النواب وشجبه حتى أعداء الاسترقاق منهم .

ولم يقف الاثر الذي تركه ذلك الاستجواب الجريء عند هذا الحد ، بل أدى الى إخفاق لنكولن في الانتخابات التالية لمقعد النيابة في الكونغرس . فدعته احدى الجمعيات المكافحة للاسترقاق، إلى القيام

برحلة الى الولايات الاميركية الشمالية للدعوة الى مبادئه ، اكسبته عدداً كبيراً من الانصار والمؤيدين .

وقد أطلق غياب لنكولن من الكونغرس الحرية لانصار الرق، وفي طليعتهم دوغلاس منافسه في تمثيل ولاية ايلينويز في مجلس واشنطن . فاقر هذا المجلس في سنة ١٨٥٤ قانوناً بدخول ولايتي كانساس ونبراسكا الى الاتحاد الاميركي بالصفة التي تريدانها فيما يتعلق باتباع مبدأ الاسترقاق او العدول عنه . ولما كانت هاتان الولايتان تقعان شمالي الخط المثبت في اتفاق مازوري ، وهو نهاية منطقة السماح بالاسترقاق ، فقد جعل القانون الجديد ذلك الاتفاق لغواً ، مما أثار اعداء الاسترقاق ، فهاجموه في الصحف ، وفي الاجتماعات الشعبية ، وعلى منابر الكنائس ، لانهم وجدوا فيه برهاناً ثابتاً على ان الحكومة قد اعتزمت حماية الجنوب وتوسيع انتصاراته وخنق الاحتجاجات الساخطة في الشمال ، وايقنوا ان الحالة اذا استمرت على هذا الغرار ، فلن تنقضي سنوات معدودة حتى تصبح القارة الاميركية حجيا للعبيد .

وكان لنكولن في طليعة المعارضين لموقف الحكومة والمنددين بسياستها والحاملين عليها حملة شعواء ، ومما قاله في صدد قرارها : « ان هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضمر حماسة حقيقية لانتشار الاسترقاق ، وهي حماسة امقتها لما تنطوي عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح ، وأمقتها لانها تشوّه نظامنا الجمهوري الذي نسوقه للعالم مثالا ، وامقتها على الاخص لانها تدفع كثيراً من رجالنا الاخيار الى حرب صريحة ضد المبادىء الاساسية للحرية المدنية ، فهم يوجهون

انتقادهم الى اعلان الاستقلال ، ويصرون على اعتقادهم انه ليس ثمة من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا ، وانه ليس الا المصلحة الشخصية ».

فالتف حول لنكولن عدد كبير من اعضاء حزب الهوغ الذين استنكروا امتداد الاسترقاق الى الغرب ، ومن اعضاء الحزب الديموقراطي الذين لم يرقهم تسلط كبار المزارعين على حزبهم ، واجتمع فريق من ممثليهم في شباط سنة ١٨٥٤ وأسسوا حزباً جديداً دعوه الحزب الجمهوري، وانتخبوا ابراهيم لنكولن رئيساً له، فألقى خطاباً حدد فيه خطة حزبه فلم يُبدِ ميلاً الى التدخل في أمر الاسترقاق في المناطق التي تقره لما في ذلك من صعوبة في الغائه ، ولكنه هاجم الكونغرس لنقضه اتفاق مازوري قائلا ان التشريع بشأن الاسترقاق يجب ان يتفق مع آراء مؤسسي الدولة الاميركية الذين رأوا تحديد مداه وأملوا زواله في المستقبل . » وانتقد الرأي الذي يزعم ان امر الاسترقاق هو من أمور الولايات الخاصة التي لا تستطيع كل منها ان تستقل بتقريرها بمفردها حسب رغبتها، منوهاً بان مسألة الرق لا تهم الولايات التي تقره فحسب بل تشمل جميع الولايات على السواء ، فهي مسألة قومية عامة . واشار الى ان هذه المسألة لن تحل الا متى انتهت الى أزمة تجتازها الامة بارادتها ، وهي إرادة خليقة إن هي اوقظت ، بان تجتاح الصعاب .

وفي الحقيقة ان فساد الرأي القائل بترك تقرير أمر الرق لكل ولاية بمفردها وحسب مشيئتها، ما لبث ان تجلى بشكل صارخ، حين شرع محبذو الاسترقاق ومعارضوه يتزاحمون جميعاً على استيطان كانساس ، وكل من الفريقين يريد التفوق بعدده على الآخر ، حتى

اذا ما حان وقت تقرير أمر الاسترقاق كانت له الغلبة على خصمه . وقد تألفت في الشمال والجنوب جمعيات لمساعدة النازحين الى تلك الولاية وتزويدهم بالسلاح . ولما بدأت المعركة الانتخابية لاختيار ممثل الولاية في الكونغرس ، اجتاز الكثيرون من اهالي مازوري حدود كانساس فساعدوا بأصواتهم على فوز المرشح الذي يؤيد الاسترقاق ثم عادوا الى ولايتهم ، مما أثار البلاد وأدى الى نشوب حرب عصابات مستمرة على تخوم الولايات المختلفة .

وفي مطلع سنة ١٨٥٧ عرضت على المحكمة الاميركية العليا ، قضية عبد اخذه سيده من احدى الولايات التي تبيح الاسترقاق الى ولاية تحظره ، فلما رجع به الى الولاية الاولى تقدم العبد من المحكمة طالباً عتقه بحجة انه كان يقيم في ولاية لا عبودية فيها . فاذا بالمحكمة توسع افق هذه القضية ، فتبحث مشكلة الاسترقاق بوجه عام ، وتقضي بان الكونغرس لا يحق له منع امتداد الاسترقاق الى الولايات الغربية ، وبان اتفاق مازوري باطل من أساسه . فثار ثائر الولايات الشمالية ، وانتقدت صحفها ذلك القرار انتقاداً شديداً ، فقالت إنه يجعل اميركا ارض العبودية ، وقالت احداها : « ان علم بلادنا قد اصبح علم الاسترقاق ، فعلينا ان ننزع تلك النجوم المتلألئة منه ، ونصبغه بالسواد ، ونجعل شعاره السوط والقيد » .

وشرع لنكولن يرثي « اعلان الاستقلال » وما آل اليه في ظل الاوضاع الحاضرة . ومما جاء في خطبه يومذاك هذا المقطع الرائع : « في هاتيك الايام كان اعلاننا الاستقلال أمراً يعده الجميع مقدساً كما عدوه ينتظم الجميع . أما اليوم فقد هوجم وسُخر منه وأوّل

وفق الاهواء ، ومزق شرّ ممزق ، حتى ان واضعيه لو بعثوا اليوم من مراقدهم لما أمكنهم ان يتعرفوه ، وذلك بما فعلنا من محاولتنا جعل عبودية الزنجي أمراً عاماً أبدياً . فان جميع قوى الارض لتظهر كأنها تتحد عليه سريعاً ، فأله المال في اعقابه ، ومن ورائه الطمع ، ثم من وراء هذا الفلسفة ، تتلوها جميعاً نظريات العصر التي تتكاتف جميعاً في سرعة لتؤيد الصيحة ضده . لقد القوا به في سجنه بعد ان فتشوه ولم يدعوا في يده أي آلة ينقب بها الجدار ، واغلقوا عليه الواحد بعد الآخر أبواباً ثقيلة من الحديد ، والان يذرونه في سجنه وعلى بابه قفل من الحديد ذو مائة مفتاح ، لا يمكن فتحه الا ان تتفق على ذلك جميع هاتيك المفاتيح . وانها لفي أيدي مائة من الرجال مختلفين مبعثرين في مائة مكان مختلفة سحيقة . وانهم ليفكرون فوق ذلك ليتبينوا أيّ اختراع في كافة نواحي العقل والمادة يمكن ان يضاف الى ذلك ، لتكون استحالة هربه اكثر توكيداً مما هي عليه » .

وفي تلك الاثناء انتهت مدة نيابة دوغلاس منافس لنكولن ، فرشح كل منهما نفسه لمجلس الشيوخ ، واتجهت الانظار جميعاً الى هذين الرجلين اللذين يجسد كل منهما مبدأ يناقض الاخر ، ممثلا احدهما الجنوب بمطامعه الخسيسة ، وثانيهما الشمال بثورته الكريمة . ونظم المرشحان في خريف سنة ١٨٥٨ سلسلة من الاجتماعات العامة المشتركة يتناظران فيها مدافعاً كل منهما عن رأيه . وعقدت هذه المناظرات في سبع مدن من ولاية ايلينويز ، فكان الاقبال عليها عظيما ، وكان الجمهور يتابع باهتمام كل ما يقوله المناظر في الرد

على خصمه .

وقد عمد دوغلاس الى كل ما يملك من أسباب الترف فاستخدمها للتأثير في جمهور الناخبين . وكان يصل الى المدن التي تعقد فيها الاجتماعات على مركبة فخمة مطهمة ، او على قطار خاص ، تحف به حاشية كبيرة احاطت نفسها بمظاهر الفخامة والابهة ، وفي مقدمة القطار مدفع يعلن وصول المرشح الخطير بثلاثين طلقة متوالية . أما لنكولن فكان يصل الى مكان الاجتماع ، على حصان هزيل ، أشعث ، أغبر ، مجهداً من التعب .

وكان دوغلاس ، على خلاف لنكولن ، جميل الوجه ، مشرق الطلعة أنيق الهندام ، يُسمى المارد الصغير لقصره ودهائه ، فكان اذا ما أخفق في مناظرته وتبين له عجزه فيها ، أهمل المبدأ السياسي الذي تدور المناقشة حوله ، كي يهاجم شخص لنكولن ، منـدداً بضعة أصله ، معدداً المهن التي مارسها ، معرّضاً بقبحه وفقره وقيافته الزرية وزيه المهمل . ولكن لنكولن كان يستقبل هـذا الوابل من السباب بظرفـه وسخره وبديهته المعجزة . ولم يسمح لنفسه لحظة واحدة بان يقابل خصمه بالمثل ، بل كان يتناسى شتائمه ويحرص على مقارعته بالحجة القوية الداحضة ، مصدقاً لما قاله فيه الفيلسوف الاميركي اميرسون : « ان قلب لنكولن كان كبيراً كالدنيـا ، لكنه لم يكن ليتسع لذكرى مهينة واحدة » . ولعل خير ما يدل على السمة الفارقة بين هذين الرجلين ، قول لنكولن في دوغلاس : « لقد سوّته الطبيعة بحيث ان ضربة السوط اذا نزلت على ظهره هو تؤلمـه وتؤذيه ، ولكنها لا تؤلمه ولا تؤذيه اذا هي نزلت على

ظهراي شخص آخر ! » فان في هذا القول لمعنى عميقاً يصور قائله كما يصور الرجل الذي يتحدث عنه .

وقد جرت على لسان لنكولن في هـــذه المناظرات الفريدة ، حكم وطنية رائعة ، وأمثال أدبية شائقة ، ونوادر غاية في الطرافة والمتعة ، نكتفي بان ننقل منها هذه الصفحة الخالدة التي تسخر من أنصار الاسترقاق وتطعن مبدأ استغلال الانسان للانسان في الصميم :

« ان مبدأ الاستعباد ، عنـــدهم ، يظهر لي كما يأتي : ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه ، وليست كذلك خطأ من جميع الوجوه ، وان من الخير لبعض الناس أن يكونوا عبيداً ، وانهم في هذه الحال يكونون خاضعين لارادة الله ! حقاً ، ما كان لنا ان نعارض مشيئة الله .. ولكن ما تزال هناك صعوبة في تطبيقها على بعض الحالات الخاصـــة . فمثلاً : لنفرض ان هناك شخصاً اسمه الدكتور روس الموقر ، يملك عبـداً اسمه سامبو . فانا لنتساءل : هل مشيئة الله ان يظل سامبو عبداً أم هي ان يُطلق سراحه ؟ وإنا لن نظفر من الله بأجابة سريعة عن هذا السؤال ، ولن نجد في كتابه الانجيل جواباً لذلك ، او اننا لا نجد في الغالب الا ما هو من شأنه ان يثير الجدل حول معناه . ولا يفكر أحـــد ان يسأل ما رأي سامبو في ذلك . وعلى هذا يترك الامر في النهاية للدكتور روس ليفصل فيه . وبينما هو يفكر في الامر ، نراه يجلس في الظل ، وعلى يده قفازه ، يقتات بالخبز الذي يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة . فاذا هو قرر ان مشيئة الله هي ان يظل سامبو عبداً ، فانه بذلك يحتفظ بموضعـــه المربح ، أما اذا قرر ان مشيئة الله هي ان يصير

سامبو حراً فان عليه ان يخرج من الظل ، وينزع فقازه ، ويكدح من أجل خبزه . فهل يفصل الدكتور روس في الامر بما تقضي به النزاهة التامة التي لا بد منها في كل فصل حق ؟ » .

على ان تلك المعركة التي أغدق لنكولن عليها فيضاً من قلبه الكريم ، وقبساً من عقله النيّر ، وأنفق في سبيلها ثروته الصغيرة كلها ، قد أسفرت عن نجاح منافسه ، واضطراره هو الى العودة إلى مزاولة المحاماة بجهد مضن حتى ينتشل اسرته من حضيض الحاجة التي صارت اليها ، لان الذين ينتخبون المرشح لمجلس الشيوخ في النهاية ، هم أعضاء مجلس الولاية المحلي ، وليسوا الناخبين من عامة الشعب ولم يعوضه من خسارته المادية هذه ، الا النجاح الادبي الكبير الذي أحرزه على منافسه وأكسبه لقب قاتل المارد ، والا البذور التي زرعها في القلوب وقد بدأت تنمو وتنضج وآن وقت حصادها .

زئير العاصفة

•

في سنة ١٨٥٩ هزت أميركا والعالم كله ، حادثة دامية كان بطلها رجل يدعى جان براون نشأ نشأة دينية ، وعاش في ظل الفاقة ، فشاهد ما يعانيه العبيد من جور وما ينغمسون فيه من بؤس . وقد حضر في ربيع تلك السنة ، مؤتمراً لمقاومة الاسترقاق خرج منه ناقماً يردد : «ان هؤلاء الناس يتكلمون كثيراً مع ان الحاجة تستلزم العمل !» ثم مضى فألف جماعة من الانصار ، وانقض بها في شهر تشرين الاول (اكتوبر) على مدينة هاربرز فاري في فرجينيا ، فاستولى على مستودع الاسلحة فيها ، واعلن تحرير العبيد في تلك المنطقة . ولكن العبيد الذين كانوا يعلمون مدى القوة التي ينبغي توافرها لتحريرهم من النير الذي يفدحهم ، لم يجرأوا على الالتحاق بهذه الجماعة الصغيرة ، فقبض على جان براون ، وحكم عليه بالموت .

وقد أثار هذا الحكم غضب الاحرار في جميع انحاء العالم المتمدن ، وأرسل فيكتور هيغو من منفاه بجزيرة المانش رسالة ملتهبة الى حكومة الولايات المتحدة ، يناشدها فيها اطلاق سراح ذلك الرجل الكريم «المشبع بروح الانجيل ، وروح محررنا المسيح ،

الذي أرسل صرخة الانعتاق الى اخوته في الانسانية » وقد ختمها بقوله : « أجل ، فلتعلم أميركا ، أن هناك ما هو أعظم شناعة من قتل قاين لهابيل ، هو قتل واشنطون لسبارتاكوس ...»

ولكن هذا الاحتجاج الناري ، وامثاله، لم تستطع ان تعدل بحكومة الولايات المتحدة عن حكمها الغاشم ، فاعدم جان براون شنقاً في ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥٩ ، في اليوم التالي لعيد ميلاد المسيح ! وقد ألهمت هذه الفاجعة احد كبار الرسامين ، لوحة رائعة تعرض اليوم في متحف فيكتور هيغو بباريس ، صور فيها طيفاً مؤثراً ورهيباً للسيد المسيح ، يشير الى شبح الموت وهو يحتضن فريسته جان براون ، وكتب تحتها هـــذه الجملة الصارخة: « كالمسيح ، من أجل المسيح ! »

وقد ترك استشهاد براون صداه الحافز في قلوب أنصار الفكرة السامية التي مات في سبيلها ، وتهافتت الدعوات على لنكولن من جميع الولايات الاميركية ليزورها ويخطب فيها ، فكان يفجّر الدموع الحارة في صدور سامعيه ، ويضرم نار الاستنكار في قلوبهم ، قائلاً ان تلك القوافل من العبيد ، اولئك البشر الذين يعاملون معاملة البهائم ، خليقون مـــتى تحرروا وتعلموا أن يصبحوا اناساً كالآخرين ، ومواطنين يضاعفون ثروة البلاد ويزيدون في مجدها . متجهاً ببراعته العظمى في الخطابة ، الى عاطفة الجمهور تارة ، والى عقله تارة أخرى ، الى مصلحته حيناً والى وطنيته حيناً آخر .

وفي شباط (فبراير) سنة ١٨٦٠ دعته جمعية كبرى من دعاة العتق في نيويورك الى القاء محاضرة فيها ، فقبـل الدعوة متردداً

لتهيبه الحديث لأول مرة في تلك المدينة العظيمة وذلك الحفل الكبير . وبينما كان يتنزه في نيويورك منفرداً غداة يوم المحاضرة ، تناهى الى اذنيه لحن رقيق صادر من مدرسة للأطفال ، لعله أحد الالحان التي ناغته بها أمه في الغابة التي ولد تحت ظلالها ، او أحد الاناشيد التي كانت آنا روتليدج ترتلها بصوتها الندي العذب في كنيسة نيو سالم ... فاذا بذلك الصديق الكبير من أصدقاء الاطفال ، يدخل المدرسة ويقف بين التلامذة مصغياً اليهم بحنو عظيم . ويلاحظ المعلم هذا الرجل الغريب ، بسيمائه المغرقة في الكآبة ولكن المفرطة في الطيبة ، فيدعوه الى التحدث للاطفال ، فيقص عليهم طرفاً من أقاصيصه الممتعة ، ثم يهم بالانصراف ، فيستوقفه المعلم ويسأله عن اسمه ، فيقدم نفسه بهذه الكلمات المتواضعة : « ابراهيم لنكولن من ولاية ايلينويز » .

ولكن ما هي الا ساعات قليلة ، حتى يقف ليلقي محاضرته أمام نخبة من رجال نيويورك ، فاذا برئيس الجمعية يقدمه الى الجمهور المتزاحم لسماعه ، بقوله : « إنه لشرف عظيم لي أيها السادة ان اقدم اليكم رئيس الولايات المتحدة المقبل ، السيد ابراهيم لنكولن » .

وكان لنكولن في ذلك الاجتماع التاريخي ، شبيهاً بابناء الطبقة العاملة التي كان يحرص دائماً على ان يسلك في زمرتها . ولم يكن فيه شيء يثير الانتباه ، لاول وهلة ، سوى قامته المفرطة في الطول . وكانت ثيابه متهدلة حول جسمه العملاق ، ووجهه شاحباً شحوباً عظيماً ، وفي اصابعه آثار العمل اليدوي الشاق ، وكانت عيناه الغائرتان كئيبتين قلقتين ، وهو لا يوحي في الجملة أية فكرة عن الذكاء العجيب

الذي رفعه من الحضيض الى ارفع مقام بين مواطنيه . وحينما تحدث مع بعض اصحابه قبل ان يأزف موعد المحاضرة ، كان يبدو قلقاً ، مضطربا ، يساوره شيء من الخشية التي تساور فتى يجد نفسه لاول مرة في مجتمع جديد يخاف انتقاده . ولكنه لما تكلم بدأ يتحول ، فالتمعت عيناه ، وارتفع صوته شيئاً فشيئاً ، واخذ وجهه يشرق حتى بدا كأنه يضيء الجمع بأسره ، وظل ساعة وبعض الساعة مستحوذا على سامعيه .

وقد فوجيء الناس بترشيح ابراهيم لنكولن لرئاسة الجمهورية ، بل لقد فوجيء هو نفسه بذلك . على ان الحزب الجمهوري ما لبث ان عقد في شهر ايار (مايو) من تلك السنة اجتماعاً بمدينة شيكاغو ، اعلن به في جو من الحماسة واتحاد الكلمة ، ترشيح لنكولن للرئاسة على أن يكون مبدأه : « ليس للكونغرس او لأي مجلس تشريعي في الولايات ، منح الاسترقاق صفة قانونية في أية ولاية اميركية » وان يضع حداً لتجارة الرقيق ، ويُدخل كانساس في الاتحاد الاميركي ، بصفتها ولاية حرة ، ويتخذ التدابير لاصلاح الحالة الداخلية وحماية الصناعة الوطنية .

وكانت هذه الخطة تناقض مناقضة تامة ، اتفاق زعماء الجنوب من قادة الحزب الديموقراطي ، على ان يكون لكل من الولايات الاميركية سيادة مستقلة وحقوق مصونة ، وان يقوم الكونغرس بحماية الاسترقاق في الولايات الغربية ، وإجماعهم على انه « ليس للكونغرس او لاي مجلس تشريعي في الولايات ، سلطة تخوّله الغاء حق اي اميركي بان يستصحب ما يملك من رقيق لاستيطان احدى

المقاطعات قبل ان تنضم الى الاتحاد الاميركي وتصبح ولاية من ولاياته » . وعلى هذه الاسس رشح الديمقراطيون للرئاسة دوغلاس منافس لنكولن .

وشهدت تلك السنة نضالا سياسياً عنيفاً مسرفاً في العنف ، شعر لنكولن في غمرته بان الارادة الشعبية التي ايقظها بدأت تحمله على موجتها العارمة . فقد كانت الجماهير تحتشد وتتظاهر في كل مكان ، لتدعو له وتهتف باسمه . وكان الخطباء ممن يعرفونه او لا يعرفونه ، يخطبون الناس عنه في الشوارع ، مبرهنين على عظيم ولائه للشعب بكونه هو نفسه ابن الشعب ، نشأ في الغابة وقضى فيها شطراً من حياته يكدح ويشقى ، فاضاف مريدوه الى القابه لقباً جديداً هو ايب فالق الاشجار .

وبقدر ما كانت الطبقات الوسطى والجماهير الشعبية تحبه وتجد فيه صدى آمالها ، كان الاقطاعيون والنخاسون وانصارهم من رجال الفكر والدين ، وجلهم من اهل الجنوب ، يحقدون عليه ويحاولون تحطيمه من كل سبيل ، ويهددون بالانفصال عن الاتحاد الاميركي إن هو ظفر بالرئاسة . فكان يقول : « كثيرون من الناس في هذه البلاد يرغبون في الغاء الرق ، وكثيرون لا يرغبون . لا أتعرّض الآن لمساوىء الرق ولا لحسناته ، ولكن كل انسان ، سواء أكان يرغب في منعه او لا يرغب ، يعلم ان الغاءه قد يتم . فلماذا تريد الولايات الجنوبية ان تنشق ؟ لانها تعلم ان الغاء الرق قد يتم ، وهي تريد ان تجتنب ذلك . بل انها تطلب اكثر من هذا : تطلب ان تنشر الرق . اننا ملومون جميعاً ، ولكننا نحن مستعدون لان

نصلح خطأنا . وانتم لا تريدون ذلك » .

وقد اخبره صديق له انه ليس بين الثلاثة والعشرين كاهناً في سبرنغفيلد ، إلا ثلاثة كهان يريدون انتصاره ، فقال وهو يشير الى الانجيل : « كيف يستطيع المسيحيون ، وبين ايديهم هذا الكتاب ان يبرروا الرق ؟ وكيف يسعهم الاقتراع له ؟ ان هذا لشيء يتعذر عليّ فهمه ! اني اؤمن بالله ، واؤمن بان الله يكره الظلم والاستعباد. واني لارى العاصفة تقترب ، واعتقد بان يد الله هي التي هيأتها ، فاذا كان لي في هذه العاصفة مكان، وذلك هو اعتقادي، فانا مستعد للقيام بواجبي فيها . أنا لست شيئاً ولكن الحق كل شيء . هذا ما علمنا إياه المسيح ! ان دوغلاس لا يريد ان يلغي الرق ، ولكن الله يريد ذلك ، والانسانية تريده ، وأنا أريده ايضاً . ولسوف يساعدني الله على تأدية مهمتي » .

وفي ليلة السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٠ اسفرت المعركة الانتخابية عن نجاح ابراهيم لنكولن برئاسة الولايات الاميركية المتحدة ، رغم مقاطعة الجنوب له مقاطعة تامة. فلما أعلنت هذه النتيجة التي دلت على تعاظم قوى الحرية في العالم الجديد ، لم تكتم الولايات الجنوبية استنكارها ، وصرخ قادتها بصوت واحد : « لا نريد ان يحكمنا هذا الرجل ! » فكأن ذلك الخطاب كان مدعواً دون غيره ليهوي بفأسه على النظام العتيق فيستأصله من الاعماق .

الحرب الاهلية

•

تجمعت النُذُر حول ابراهيم لنكولن قبل ان يتسلم مهام منصبه الخطير . فقد كان من تقاليد البيت الابيض ، مقر رئاسة الجمهورية، ان لا يدخله رئيس جديد الا في شهر آذار (مارس) . وفي انتظار هذا التاريخ وقعت أحداث جسام روّعت البلاد وهزتها هزاً عنيفاً.

فقد انفصلت ولاية سوث كارولينا عن الاتحاد الاميركي في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٦٠ ، وأرسلت الى جاراتها نداء تدعوها فيه الى اقتفاء أثرها ، فلبت دعوتها في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦١ كل من ولايات مسيسيبي وفلوريدا والاباما وجورجيا ولويزيانا ، ثم انفصلت في شهر شباط (فبراير) ولاية تكساس . وطفق قادة هذه الولايات يبينون للشعب مساوىء الاتحاد الذي كان يهدد بتغلب صناعة الشمال على مصالحهم الزراعية. وفي ٤ شباط سنة ١٨٦١ اجتمع في مونتغموري من أعمال ألاباما مندوبون عن الولايات السبع واتفقوا على تشكيل « الولايات الاميركية الائتلافية » وانتخبوا جفرسن دايفس رئيساً موقتاً لها .

وراع الشمال انفصال الولايات الجنوبية عن الاتحاد ، واختلفت وجهات الناس في النظر اليه ، فذهب فريق الى أن هذا الانفصال ينقذ

الشمال نهائياً من « النظام الشيطاني » كما كانوا يسمون الاسترقاق ، ويريحه من المشاكل المستعصية التي نشأت بسببه بينه وبين الجنوب. وقال فريق آخر ان اتحاد الولايات الاميركية أمر مقدس ، فيجب حمل الولايات المنفصلة على الرجوع اليه وارغامها على انتهاج الطريق القويم فيما يتعلق بمسألة الرق . ولم يجد الراسماليون الذين تربطهم بالجنوب علاقات تجارية استعمال العنف لارجاع الجنوب الى حظيرة الاتحاد ، وأشاروا بالسعي لتحقيق ذلك بالاناة والحلم. واقترح الكونغرس حلاً وسطاً يقوم على ابقاء الرق في الولايات التي كانت تقره ، والسماح بتجارة الرقيق في داخل البلاد كلها ، وانشاء خط يفصل بين الولايات التي الغت الرق والولايات التي أبقت عليه كالخط الذي وضع قديماً في اتفاق مازوري . ولكن واحداً من هذه الحلول لم يلاق تأييداً تاماً من جماهير الشعب ، وظلت عواصف القلق والحذر والتوتر تعصف بالبلاد ، حتى تجلى للجميع أنه لا بد من الاحتكام الى السلاح .

وفي الواقع انه لم يكن هنالك بد من تحكيم السلاح بين الفريقين ، لان مصالحهما الاقتصادية كانت قد وصلت الى حد من التناقض جعل من المستحيل تسويته بالحسنى أو دوام الحال على ما هي عليه . فالولايات الشمالية ، وهي أقاليم صناعية لا تتأثر بما تتأثر به الاقاليم الزراعية ، كانت تريد تسيير الدولة وفق ما تقتضيه مصالحها، وقد استطاعت ان تفرض الرسوم الجمركية الباهظة على بعض الواردات صيانة لصناعتها الوطنية ، ولم تكن هذه الرسوم مما يلائم مناطق الجنوب التي لا صناعة فيها . وكان القطن والقصب

أهم محاصيل الجنوب ، وتصديرهما عماد ثروته ، ولكن الصناعة الشمالية بحاجة اليهما ، وهي تريدهما باسعار رخيصة ، وتأبى ان تنافسها الصناعة الاجنبية عليهما ، ففرضت الدولة على تصديرهما ضريبة فادحة شلت حركة هذا التصدير ، وجعلته قليل الربح عديم الفائدة . وتأتي أخيراً مسألة العبيد التي كانت تحمل في تضاعيفها جميع المسائل الاخرى ، فالاسترقاق ضرورة ملحة للنظام الاقطاعي العبودي ، وهو عائق كبير في النظام الرأسمالي يؤخر تطوره ويحول دون ازدهاره . يضاف الى هذا كله ، الافكار والمبادىء التي تلبست بها هذه الامور جميعاً فأيقظت الجماهير الغفيرة وجندتها في سبيلها .

وهكذا يتبين ان الحرب الاهلية في اميركا ، انما كانت ، كما يقول المؤرخان تشارلس وماري بيرد ، ثورة اجتماعية أخذت اسبابها تتبلور منذ زمن بعيد ، حتى بلغ نموها مرحلة النهاية فانبعثت في شكلها المعروف ، ولو أن المزارع الكبيرة بأنظمتها الاقتصادية والاجتماعية لم تكن منحصرة في الجنوب ، بل منفرقة في جميع أنحاء البلاد ، لأصبح النزاع قائماً في كل ولاية ، بين المصالح الزراعية الارستوقراطية وبين المصالح الصناعية والتجارية ، ولنشبت الحرب بين الطبقتين الاقطاعية والرأسمالية مباشرة بدلا من أن تقوم بين منطقتين كبيرتين من البلاد .

*

تولى ابراهيم لنكولن رئاسة الولايات الاميركية في ٤ آذار (مارس) سنة ١٨٦١ وهو في سن الثانية والخمسين ، وكل ما يحيط به يوحي بأخفاقه في المهمة التي انتدبته لها امته ، الا التأييد الشعبي

الذي كان يلهمه الثقة بنفسه ، ويحثه على المضي في طريقه القاصد الى النهاية . فالرئاسة بحد ذاتها لم تكن عنده غاية يستريح اليها ، بل كانت مبدأ مرحلة جديدة في الجهاد ، وانه ليحس احساساً داخلياً أنه هالك في هذا الجهاد ، فلا يثنيه هذا الاحساس عن متابعته ولا يزيده الا إقداماً فيه .

وأقسم الرئيس الجديد ، ويده على الانجيل ، يميناً بالمحافظة على الدستور . وقال ان هذا القسم يجعل لزاماً عليه ان يقوم بواجبه في ان يكون قانون الولايات المتحدة نافذاً في جميع الولايات . ثم قال ان الوحدة الأميركية لا تحل ، وكل عمل يرمي الى فصم عراها باطل ، وأن حكومته عازمة على الدفاع عن هذه الوحدة ولو اضطرت الى استخدام القوة في سبيلها . وختم كلامه بقوله : « اني واثق من انكم لن تحملوا كلامي على محمل التهديد ، بل انها كلمة الاتحاد يُعلن انه سيحمي بناءه ، ويدعمه على أساس من الدستور ، وهو اذ يفعل ذلك لا يرى ثمة حاجة الى سفك الدماء والعنف ، ولن يكون شيء من هذا الا اذا اجبرت السلطة القومية عليه » .

وقد تردد لنكولن قليلاً في الاسراع بمكافحة الرق ، او اعلان الحرب على الولايات المتحدة المنفصلة عن الاتحاد لردها اليه ، لاضطراب النفوس وحيرتها ، ولعدم تيقنه من مقاصد أشياعه ، لا سيما وأن فريقاً من التجار كانوا يستنكرون الحرب جهرة لعلاقاتهم التجارية مع الجنوب ، ويعملون على ابعادها ما وسعهم العمل ، وقد بلغ من تأثيرهم في جهاز الدولة ان وزراء لنكولن قد مهدوا لوضعه في ذلك الموضع الحرج قبل وصوله الى واشنطن .

فوزع وزير البحرية الاسطول الاميركي في أنحاء الدنيا ، وحل وزير الحربية الجيش وموّن الجنوب باسلحة الشمال ، وافرغ وزير المالية صندوق الدولة بانفاق محتوياته على مشاريع شتى .

ولبثت البلاد تنتظر !

كان الجميع ينتظرون حادثة فاصلة تصدر عن احدى الفئتين فتعبر بها عن موقفها تعبيراً جازماً يخرج البلاد من ظلمة الشك الى وضح اليقين .

ولم يطل انتظار الناس كثيراً ، فقد جاءت الحادثة التي ينتظرونها ، ومن حسن الحظ أنها صدرت عن الجنوب ، وانها كانت حادثة اعتداء . ففي ليلة الثالث عشر من نيسان (ابريل) اطلقت القوات الائتلافية النار على فورت سومتر ، وهي قلعة في ميناء تشارلستون كانت قد اعتصمت فيها حامية اتحادية قرر لنكولن تزويدها بالمؤن ، فتخوفت الحكومة الائتلافية من ذلك ، وأمطرت القلعة بوابل من نيرانها ، فاضطرت حاميتها الصغيرة الى الاستسلام ، وانزل عنها العلم الاتحادي المرصع بالنجوم ، لتحل محله راية تتوسطها شجرة نخيل هي راية الجنوب الخارج على الاتحاد . فأثار الامة هذا النبأ ومحا الخطر الذي يهدد وطنها وحريتها الخلافات التي كانت تحول دون اتحاد كلمتها على رأي حاسم ، فاتجهت باجمعها شطر لنكولن ، لانها وجدت فيه المنارة المرشدة في ظلمة تلك الخطوب والارادة الحازمة الملهمة بالحنكة وبالاقدام .

وفي صبيحة اليوم التالي لاستسلام حامية حصن سومتر ، اذاع لنكولن على حكام الولايات الموالية بياناً دعاهم فيه الى حشد ٧٥٠٠٠

متطوع لمقابلة الاعتداء بمثله . وقال : « انني اؤمن بان الفكرة الاساسية لهـذا النزاع ، انما نشأت من حاجتنا الى البرهان بأن الحكومة الشعبية ليست باطلة او مستحيلة البقاء ، وبان علينا ان نبتّ في هذا الامر الهام : هل يحق لاقلية ما في دولة حرة ، أن تهدم أركان هذه الدولة كلما بدا لها ذلك ؟! » . فلم ينقض اسبوع واحد حتى تجاوز عدد المتطوعين التسعين الفاً ، وبعد شهرين وصل عددهم الى ثلثمائة الف . وتألف في غمرة الحماسة الوطنية جيش كبير أصبح يعدّ قبل نهاية الحرب الاهلية ثلاثة ملايين جندي . ووجد لنكولن نفسه على رأس ذلك الجيش العظيم ، وعلى عاتقه تبعات تدريبه وتموينه وقيادته في ميادين القتال .

وعلى اثر صدور بيان لنكولن ، انفصلت عن الاتحاد الاميركي اربـع ولايات جديدة هي فرجينيا ونورث كارولينـا وتانسي وار كنساس ، وانضمت الى الائتلاف الجنوبي ، وتحولت عاصمة هذا الائتلاف من مونتغمري الى ريشموند في فرجينيا . فبلغ عدد الولايات المنفصلة احدى عشرة ولاية يقطنها تسعة ملايين نسمة ثلثهم من الزنوج ، تقابلها في الشمال ثلاث وعشرون ولاية اتحادية يسكنها اثنان وعشرون مليون نسمة جلهم من الجنس الابيض .

وكانت معظم القوة الصناعية والتجارة الخارجيـة والمعارف الفنية والسكك الحديدية بيد أهل الشمال . أما الجنوب فكان غنياً بمنتوجاته الزراعية ، وكان قادته يعتقدون ان صناعة الاتحـاد لا تستطيع الاستغناء عن هذه المنتوجات ، وان في وسعهم بيع صادراتهم في اسواق انكلترا او فرنسا واستيراد المواد الحربيـة

منها، فضلاً عن ان استعدادهم الحربي كان يفوق استعداد الشماليين، وان خبرتهم في فنون القتال قديمة وعندهم قادة بارزون مجربون . يضاف الى هـــذه كله اعتمادهم على الانشقاق الداخلي في صفوف الاتحاديين ، لميل المزارعين منهم الى مبـــدأ الاسترقاق الذي تم الانفصال من أجله ، ، وكراهية جماعة اخرى لمبدأ الحرب .

عبء العظيم

•

بادرت القوات الائتلافية ، بعد استيلائها على قلعة سومتر ، مواصلة هجومها ، فأعلنت الزحف الى واشنطون للسيطرة على مقاليد الحكم فيها . ومعروف أن عاصمة الولايات المتحدة تقع في ولاية كولومبيا المحاطة بولاية ماريلاند المعادية للاتحاد . وهكذا وجدت نفسها مطوقة بين حدود ولاية متمردة عليها ، وليس لديها حامية تدافع عنها سوى عدد قليل من المتطوعين . فلما ذاع نبأ الزحف عليها ، انتشر فيها الذعر ، واعلنت حالة الحصار ، فنصبت المتاريس في مداخلها وشوارعها وحول مؤسساتها العامة ، واجلي النساء والاطفال الى مكان أمين بعيد عنها . وأرسل لنكولن يستدعي الفرقة الجمهورية الاولى لحماية المدينة . ولبث ينتظر في قلق ، والجمهور المروّع يتطلع الى مشارف العاصمة يخشى أن يهاجمها خصومها قبل ان يقبل المدعوون للدفاع عنها .

ووصلت الفرقة الجمهورية الاولى الى واشنطون أخيراً ، بعد أن تركت في الطريق بعض الضحايا من أفرادها في معركة خاضتها في بلطيمور ، اذ تعرضت لها هناك جماعة من الانفصاليين كانوا قد تآمروا مرة على قتل لنكولن فأحبط مؤامرتهم بحيطته وحذره ،

فاذا بهم يحاولون الايقاع بالفرقة التي استنجد بها الرئيس ،فيفاجئونها على غرة ، ويشتبكون معها في معركة قصيرة منوا فيها بالاخفاق ولكنها أخرت وصول الجنود الاتحاديين الى العاصمة وكبدتهم خسائر كثيرة .

لقد كانت هذه الفرقة أسرع من الجيش الائتلافي في الوصول الى واشنطون ، ولكنها كانت كجميع الفرق الجمهورية فقيرة في السلاح والذخيرة ، وفي الخبرة والتدريب ، وما كادت تستقر في ثكناتها حتى تبين ولاة الامر آن وجودها يهدد الاهلين بالمجاعة لانها بدأت تشاركهم مؤونتهم القليلة ، مما زاد في قلق الناس وضاعف اضطرابهم . ثم اكتشفت السلطة في قلب العاصمة ، مؤامرة يحوكها الانفصاليون لاسقاط الحكومة واحراق المدينة ، فشاعت الفوضى في بعض الاوساط الشعبية ، ثم تغلغلت الى الاوساط الرسمية نفسها ، فبدأ الوزراء ينتقدون اعمال لنكولن ، ويوجهون اليه أمرّ اللوم على المأزق الذي جرّ البلاد اليه . ولكن الرجل الكبير ظل محافظاً على رباطة جأشه ،صامداً في الدفاع عن فكرته . وقد استطاع بوطنيته العظيمة ، وخلقه النبيل ، وادارته الحازمة ، وعمله البصير المتواصل ، ان يقوّي في الناس عزيمة الجهاد ، وان يوحي الى اعضاء الحكومة الثقة به والتعاون معه ، كما استطاع ازالة شبح المجاعة بالاستيلاء من الجنوب على بضعة الاف كيس من الطحين ، وتجهيز الجيش بشراء المعدات الحربية من اوروبة وبانشاء المصانع الوطنية لانتاجها .

ان اعباء الرجل العظيم تكون دائماً على قدر عظمته وسمو نفسه واتساع

طموحه ، وكذلك كانت اعباء لنكولن ، في خلال اعوام الحرب الخمسة الرهيبة ، كبيرة بقدر المهمة الكبيرة التي اخذ تحقيقها على نفسه . لقد كان يعمل في الليل والنهار لتأدية واجبه الوطني في المرحلة العصيبة التي تمر بها بلاده ، والاضطلاع بالرسالة الانسانية التي انتدبته لتحقيقها . فكان العقل الذي تهتدي به امته في ظلمة الاهوال المطبقة عليها ، والقلب الذي يفيض الحياة في عروقها . وكان مَثله في تحمل التبعات الجسيمة في تلك الحرب الاهلية التي عصفت بالعالم الجديد وأنذرت بفنائه ، كمَثل أطلس بطل الاسطورة القديمة الذي كان يحمل العالم على كتفيه الجبارين .

ولقد رافق النجاحُ الجنوبَ أمداً غير يسير ، لانه كان كما قلنا اكثر استعداداً وأوفر تجهيزاً وأغنى بالقادة المجربين ، فاحرز انتصارات كبيرة أغرقت الاتحاد الاميركي في الالم والذعر لكثرة ما كابد من الخسران . وقد فقد مرة في موقعة واحدة ، دارت على مقربة من واشنطون ، بعد انقضاء ثلاثة شهور على اعلان الحرب ، أربعة آلاف مقاتل من ابنائها ، وعدداً كبيراً من الاسلحة والمعدات . واقترب العدو غير مرة من العاصمة يهددها تهديداً مباشراً ، حتى كانت طلائعه تبدو للناظر من شرفة البيت الابيض ، ولكنه كان يتهيب دائماً مهاجمتها ، فتنجو من الخطر باعجوبة .

واتسع مسرح المعارك الحربية كثيراً فكانت تفصل بين جبهة وأخرى مسافات شاسعة ، وقد تنقضي احياناً اسابيع بل شهور طويلة بين موقعة واخرى ثم يعود القتال الى عنفه واحتدامه . ولم تقتصر الحرب على البر بل تعدتها الى البحر وامتدت الى المياه

الاجنبية ايضاً . وقد عمد الرئيس الى تحويل المراكب التجارية الى مراكب بحرية ، وأنشأ بواخر جديدة ، فأصبح اسطول الاتحاد بعد ٥٨٩ قطعة بحرية يعمل فيها سبعون الف نوتي . بيد أن جيش البر كان يذوب أمام رشاشات الاثتلافيين ، وهزائمه يأخذ بعضها برقاب بعض ، فيجد لنكولن نفسه مرغماً على مناشدة المواطنين التطوع من جديد ، ثم يضطر الى اقرار نظام الخدمة العسكرية الاجبارية .

وكان هذا الجيش ، ككل جيش شعبي ثائر ، يضم بين أفراده جنوداً قد لا يتجاوزون سن السادسة عشرة او الخامسة عشرة او الثالثة عشرة أحياناً ، وقادة كباراً ما يزالون في الثلاثين من عمرهم . وقد تألق من هؤلاء في السنة الأولى من الحرب ، قائد شاب يدعى ماكليلان تفوق على أقرانه بمهارة تنظيمه واحكام خططه وسرعة خاطره ، ولكنه كان صلفاً ، مزهواً بنفسه كثير الاعتداد والجبروت ، وكثيراً ما كان يأبى التقيد باوامر حكومة واشنطون . فكان لنكولن يتغاضى عن ذلك ، ويعامله بأناة وصبر عظيمين ، وربما انتظر على باب غرفته اذا كان يريد مقابلته ، حتى يفرغ من اجتماع يعقده او أمر يشغله فيتسع وقته لاستقباله ! وقد شاع ذلك عنه فاستنكره الناس ولامه أصحابه ، فقال لهم كلمته الشهيرة : « اني على استعداد لأن أمسك لماكليلان زمام جواده اذا كان سيؤمن لنا النجاح » ! وهي كلمة الزعيم الحق الذي يتناسى شخصه في سبيل أمته .

ولم يستطع ماكليلان الأفادة من الانتصارات التي أحرزها في

أول عهده ، وأثقل كاهل الامة بطلبه المتواصل لقوافل المتطوعين، فاضطر لنكولن أخيراً الى عزله ، وتسلم قيادة الجيوش مكانه ، لانه لم يجد رجلا يخلفه . وكان قد عكف منذ بدء النزاع على دراسة الفنون الحربية ، وانقطع لها بكليته فأصاب منها نصيباً وافياً أهّله للقيام بمهمة القيادة ردحاً من الزمن الى جانب قيامه بمهمة الرئاسة وسهره المتواصل على ادارة شؤون الحكم ، ومعالجة ما يعصف به من أزمات وزارية متتابعة ، ومن حاجة ملحة متعاظمة الى المال ، ومن مؤامرات واضطرابات في شتى انحاء البلاد . يضاف الى هذا خطر كبير تعرض له وطنه ، وكاد يؤدي الى حرب عالمية رهيبة ، هو ميل الانكليز والفرنسيين والاسبان الى الولايات الجنوبية لانها كانت سوقاً تجارية لهم تنافسها الولايات الشمالية عليه ، وتأهبها غير مرة لخوض الحرب الى جانبها ، لولا حكمة لنكولن الذي وطّأ من جانبه للاجانب فتعرض لانتقاد مواطنيه ولكنه جنّب وطنه خطراً مخوفاً ربما أطاح به في ذلك العهد العصيب .

كان ابراهيم لنكولن يستقبل تلك الخطوب المدلهمة بضحكته الطيبة الرحوم . كان يضحك اذا نعته خصومه بالسعدان العجوز ، وعاشق العبيد ، والحصان الجموح ، والمرائي الحقود . ويضحك كلما وردته رسالة غفل يهدده كاتبها بالقتل ، ويضعها الى جانب أخوات لها كثيرات في مغلف كتب عليه « رسائل تهديد » . ويضحك في أصعب الظروف وأحرج المآزق ، قائلا : « يجب ان أضحك ، فالضحك دعامة الثقة لديّ ، واذا لم أضحك فضي عليّ » . وكثيراً ما كان مرحه ينهض العزائم الخائرة ، ويفعل في القلوب المضطربة

اكثر مما تفعله الخطب الحماسية الطوال . على ان هذا المرح كان أشبه بقمة الامواج التي تتألق وتسطع ولكنها تغطي هـــوة لا يسبر لها غور ، فكذلك كانت في نفس لنكولن ، وراء ذلك المرح الظاهر ، هوة من العذاب العاصف ما تفتأ تزداد اتساعاً وعمقاً .

لقد كان عظيم الاحترام للحيـــاة البشرية ، يألم لشقاء الانسان ويثور للدم المسفوك . وكان مرهف الحس ، متدفق العاطفة ، شديد الحنان . فكان يضنيه ويشجيه أن يرى بلاده تقطع أوصالها بأيديها ، وان يكون على رأس هذه الحرب الأهلية التي يقتل فيها الانسان أخاه . كان كل جرح يصيب البلاد يشق جرحاً جديداً في قلبه ، ويشعر بآلام الافراد وآلام المجموع كأنها تنزل بـه وتثقله بعبئها الفادح ، ويحس كأنه يغرق في امواج الدموع والدماء التي تتحدر من جوارح الامة ، امتـه . وقد ضاعف من عذابه انه فقد أصغر أولاده وهو في العاشرة من عمره ، فامتزجت هـــذه المحنة الشخصية بمحنة امته ، وتضافرتا عـــلى سحق ذلك القلب الكبير ، ولم يكن يعينه على تحمل ثقلها المرهق ، سوى المطالعة المستمرة ، وكانت مآسي شكسبير وحياة واشنطون ما يصطفيه . ولم يكن ليعزيه عما يهرق في تلك الحرب الضارية من دم بريء ، سوى كونها شراً وقتياً لا بد منه لاستئصال شر شنيع مقيم . فقد كان واثقاً من أنه يحارب في سبيل قضية عادلة ، وكانت هذه الثقة عزاءه المشجع ، فكان يخرج من تلك الليالي الطوال التي يلوذ فيها بنفسه مفكراً متأملاً مصلياً ، اكثر شجاعة واقداماً ، وأقوى عزيمة على النضال والانتصار ، مردداً كلمته المأثورة : « ان قضيتنا هي قضية العدالة ،

ويستحيل ان تحقق قضية كهذه ، انه ليجب ان نلتصر ، ولسوف نلتصر » .

ذلك ان ابراهيم لنكولن لم ينس يوماً واحداً القضية الأساسية والهدف الرئيسي للحرب التي تخوضها بلاده . ولو أنه نسي ذلك لذكّره به الانتلافيون بأساليبهم الوحشية . فقد كانوا يستخدمون العبيد كما كان يستخدمهم الرومانيون القدماء ، في حفر الخنادق وبناء الحصون وتعبيد الطرق ، لمساعدة أسيادهم على إحراز انتصارات كانت حريتهم ثمناً لها . وكانوا يرغمون عشرات الألوف منهم على الحرب في ظل العلم الذي يرمز الى عبوديتهم ، ويسيرونهم في طليعة جنودهم ، مهددين المتراجعين منهم بالقتل ، جاعلين منهم طعاماً لرصاص البنادق الذى تطلق من اجل تحريرهم . وكثيراً ما كانت فلول الزنوج الذين يخشون التمثيل بهم في أعقاب المعارك المخفقة ، يهربون من صفوف جلاديهم ليلتحقوا بالمسيح لنكولن كما كانوا يسمون منقذهم .

ولكن أبناء الولايات الشمالية الذين أجمعوا على قمع عصيان الجنوب ، وارغامه على العودة الى الاتحاد ، كانوا ما يزالون مختلفي الرأي بصدد الاسترقاق . فرجال الصناعة يرون ان السود يجب ان يصبحوا مواطنين أميركيين يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها البيض . ورجال الزراعة ينوّهون بان عمل العبيد يؤمن وحده ثروة نصف القارة الاميركية ، فاذا ما تحرروا انهارت دعامة الاقتصاد الوطني في بعض الولايات وأفلس كثير من كبار المزارعين . فالأولون يريدون الغاء الرق فوراً ، والآخرون ، وهم الفئة القليلة ، لا يجرأون على معارضة هذه الفكرة فيقولون

بالغائه تدريجاً .

وكان لنكولن يصغي الى أقوال الفريقين دون ان يبدي تأييداً لها او استنكاراً . فقد كان يعرف ان واجبه الاول في تلك المرحلة التي تجتازها امته ، هو انقاذ وحدتها ، اما قراره بشأن الاسترقاق فكان قد اتخذه منذ أمد بعيد . واذا كان قد جعل مبدأ الحرب المحافظة على الاتحاد لانه اكثر استثارة للحماسة واستنهاضاً للهمم ، فقد كان يعرف ان القضيتين في الواقع متداخلتان لا تنفصل احداهما عن الاخرى ، وما كاد يتلقى في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٦٢ نبأ انتصار الجمهوريين على الائتلافيين في معركة انيتام ، حتى أقبل الى مجلس الوزراء وخاطب اعضاء الحكومة بقوله : « كنت قد اعتزمت ان اصدر على اثر اول انتصار نحرزه ، منشوراً بتحرير الرقيق . اني لم اطلع على هذا الامر أحداً ، لكني وعدت به نفسي ، ووعدت به ربي ، وسأفي بهذا الوعد » .

وما هي إلا أيام معدودة حتى اعدّ بياناً بالغاء الرق ، وأمهل الجنوبيين الى اول شهر كانون الثاني (يناير) من السنة التالية كي يعودوا الى الاتحاد ويقبلوا بتحرير العبيد طوعاً ، والا أذاع منشوره ونفذه عنوة . فكان جواب الولايات الائتلافية على هذا الانذار انها ضاعفت من ضراوتها في القتال والاستماتة فيه . فلما انقضى الاجل المضروب ، اذاع لنكولن منشوره في مطلع سنة ١٨٦٣ ، ولكنه لم يترك الأثر العملي الذي ينشده من ورائه . فالولايات الجنوبية لم تعترف به لخضوعها لسلطة الحكومة الائتلافية ، والولايات الشمالية شكت في قيمته لصدوره عن رئيس الجمهورية وليس عن الكونغرس ،

فالعبد ملك لسيده وليس يحق للرئيس تجريد الناس من ملكيتهم .

وعقبت ذلك هزائم متواليـــة مني بها الشمال . وأضعف طول الحرب من حماسة المواطنين فانقطع تطوعهم في الجيش ، مما أرغم لنكولن على اقرار نظام الخدمـــة العسكرية الاجبارية . وكانت نفقات الدولة تتعاظم ، فاضطر الى زيادة الضرائب زيادة عاليـة . وكان ذلك كله يضاعف نقمة الناقمين عليـــه ، ويصرف عنه بعض انصاره من المترددين وخائري العزم ، ويعزز لدى الجمهور أسباب القلق والاضطراب ، ويقوّي خصومه الذين ما يفتأون يدعون الى عقد الصلح ووضع حد للحرب باية وسيلة كانت ويسخرون منه لانه يريد « ان يخلق الحب بالقوة وان ينمي شعور الاخاء بالحرب ! » الا ان لنكولن لم يأبه لذلك جميعاً ، وظل على ثباتـه في موقفه ، وصلابتـه في عقيدته ، واصراره على مواصلة النضال الى النهاية ، مؤمناً بان الغلبة فيه لن تكون الا لقوى الحرية التي أولاه التاريخ شرف قيادتها .

ويروي مؤرخو سيرة لنكولن مآثر انسانية رائعـة قام بها في هذه الحقبة العاصفة ، منها ما يتصل بنزوله الى خطوط النار معرّضاً نفسه غير مرة الى خطر الموت ، ومنها ما يتعلق بتفقده حال المرضى وسهره على راحتهم وبقائه الساعات الطوال الى جانب أسرّتهم معزياً ومسلياً ومشجعاً ، ومنها ما يعرض لعلاقته بالمحاربين وبأفراد أسرهم وهي علاقة ملؤها العطف والحدب والرعاية الابوية الرؤوم . ومن طريف ما يروونه في هـذا الصدد ، ان رجلاً جاءه يسأله عملاً لانه قد فقد ساقه في الحرب ، ولم يكن لدى الرجل ما يثبت دعواه ،

فقال له مازحاً : « ماذا ؟ ليس لديك ايّ اوراق او ايّ شهادات او ايّ شيء يرينا كيف فقدت رجلك.. فليت شعري كيف أتبين انك لم تفقدها في فخ وقعت فيه وأنت تسطو على بستان غيرك ؟!»

وكذلك يروي مؤرخوه اقاصيص شتى تدور حول الشفقة العظيمة التي كان يقابل بها طلبات العفو التي تتقدم بها اليه امهات الجنود الذين يحكمون بالاعدام او نساؤهم ، فقلما كان يرفض طلباً من هذا النوع ، الا اذا كانت جناية الجندي المحكوم مما يتعلق بالخيانة العظمى ، مما أثار عليه وزراءه وقواده ، فكان يقول لهم : « اليس الأفضل للوطن ان يكون هؤلاء الشبان فوق ارضه ؟ » وقد عفا مرة عن جندي هرب من الجيش لملاقاة خطيبته ، فلاموه في ذلك ، فقال لهم انه ربما كان يصنع صنيعه لو كان في سنه ، ثم قال : « ان المسألة مسألة أقدام ، فكيف تريدون من رجل ان يخوض غمرات القتال بقلب مثل قلب يوليوس قيصر ، اذا كانت قدماه تأبيان حمله الى ساحة الحرب ؟ »

ومن أمتع ما رواه مترجموه في هذا الصدد ، انه التقى مرة في احدى الثكنات جندياً شاباً يدعى وليم سكوت حكمت عليه القيادة العامة بالاعدام ، لان سِنة من النوم اخذته وهو يتولى الحراسة ، فطفق الفتى يتوسل الى الرئيس ان يعفو عنه ، مقسماً له بأنه لم يكن يريد ان يغفو ولكن النعاس قهره بعد سير طويل وسهر متواصل ، فقال له : « انك لن تعدم يا بني لاني واثق من انك لم تستطع التغلب على النعاس ولم تستسلم اليه بارادتك ، ولسوف اضع ثقتي بك فأعيدك الى كتيبتك ، ولكن هذا الامر

يضعني في موضع معنت لي وأود ان اعلم ماذا انت فاعل لسداد هذا الدين ؟ » فتلعثم الشاب وتردد ، اذ لم يتسع خياله المحدود للمعنى الذي قصد اليه الرئيس ، وخيل اليه أنه يطلب منه مالاً مقابل العفو عنه ، فقال له: « لا أدري هل نملك المقدار الكافي من المال ، فنحن فقراء ، الا ان لدينا مبلغاً قليلاً قد اقتصدناه ، وفي وسع والديّ ان يبيعا مزرعتهما . وربما ساعدنا بعض الاصدقاء ايضاً ... فان كنت تستطيع الانتظار ، فان في مقدوري ان اجمع من ذلك كله الفين او ثلاثة الاف من الفرنكات ! » فلم يغضب الرئيس لغباوة الفتى التي انطقته بهذا القول الجارح ، وقال له بأناة ورفق : « كلا يا بني ، فان دينك كبير ، وليس تسديده مما يدخل في طاقة أسرتك ومزرعتك واصحابك . وانما هناك شخص واحد هو القادر وحده على وفائه ، واسم ذلك الشخص هو وليم سكوت .. فاذا ما اخذ وليم سكوت منذ اليوم في أداء واجباته ، وكان في قدرته يوم ممانه ان يقول : لقد وفيت بالوعد الذي قطعته للرئيس ، لاني قمت بواجبي كجندي ، فحينئذ يتسدد الدين ! » .

وكان هذا الرجل الكبير ، اذا ما لامه احدٌ على شدّة عنايته بالمستضعفين والمضطهدين ، يجيبه بقوله : « اني لأعرف جيداً أية حالة اعانيها لو كنت في مكانهم ! » وهي جملة تكشف عن سر الرابطة الوثقى التي كانت توحد بينه وبين شعبه ، فيحسّ قلوب العشرين المليون أمير كي تخفق في قلبه .

المعارك الفاصلة

•

تتابعت في صيف ١٨٦٣ عدة معارك كبيرة كان النصر فيها سجالا بين الشمال والجنوب . وكان اعظمها شأناً معركة غيتسبورغ التي دامت من الثالث الى الخامس من تموز (يوليه) فكلفت الفريقين ثمانية آلاف قتيل وثلاثين الف جريح ، وانتهت بانتصار الجمهوريين، وكانت نقطة التحول في الحرب الاهلية الاميركية ، أذ ادت الى سلسلة من الانتصارات أحرزتها القوى الجمهورية . وقد دفن اكثر ضحايا هذه المعركة في ساحة القتال التي صرعوا فيهـــا . وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة ، انشىء في هذه الساحة نصب تذكاري للشهداء الذين سقوا ترابها بدمائهم الزكية ، فالقى لنكولن في حفلة تدشينه خطاباً شهيراً يتدارسه الطلاب الاميركيون الناشئون ، قال فيه :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت ، أنجب آباؤنا في هذه القارة امة رضعت لبان الحرية ونذرت نفسها للمناداة بتساوي الناس أجمعين . ونحن الآن في حرب أهلية ضروس تمتحن فيها هـــذه الامة ، وسيعرف العالم من هذا الامتحان هـل تستطيع الحياة والبقاء ، هي أو أية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها لذلك المبدأ.

« وفي هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هـذه هذه الحرب . وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لاولئك الذين جادوا بحياتهم كي تحيا هذه الامة . وحقٌ علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك . على أنه ليس في وسعنا ان نقدس هذه الارض او نباركها ، اذ ليس في متناول طاقتنا أن نزيد في مكانتها أو أن ننقصها ، وقد أفاض عليها الابطال الذين ناضلوا فيها ، سواء منهم الذين ماتوا او الذين ما يزالون احياء ، ما أفاضوا من الجـلال والقداسة . ولن يذكر العالم الا قليلا ، ماننطق به افواهنا في هذا المكان ، ولكنه لا يستطيع ان ينسى ابـداً ما صنعه فيه اولئك الابطال .

« وانه ليجدر بنا نحن الاحياء ، ان نندر نفوسنا ههنا ، للعمل النبيل الذي سعى لنصرته اولئك الذين حاربوا هنـا وخطوا به خطوات كريمة . نعم ، يجدر بنـا أن نندر حياتنا للقيام بالمهمة العظيمة الـتي يجب ان نتمها ، وان نستمد من هؤلاء الاموات المكرّمين اخلاصاً متزايداً للمبدأ الذي بذلوا في سبيله أقصى ما يمكن من اخلاص ، وان نعقد العزيمة الصادقة عـلى ألا تذهب ارواح هؤلاء الاموات ضياعاً ، وعلى أن تُبعث الحرية في هـذه الامة ، بعون الله ، بعثاً جديداً ، وألا تمّحي من الارض الحكومة الشعبية التي يؤلفها الشعب في سبيل الشعب » .

وفي سنة ١٨٦٤ انتهت مدة رئاسة لنكولن ، فرأى من واجبه ان يرشح نفسه لها مرة ثانية ، للاضطلاع بمهمة الحكم في تلك المرحلة العصيبة التي تجتازها البلاد والتي تقع على عاتقه تبعتها الاولى . وقد

خاض المعركة الانتخابية اشخاص عديدون بينهم القائد ماكليلان ، فهاجموه بقوة وانتقدوه انتقاداً عنيفاً، الا ان ذلك لم يؤثر في مكانته الرفيعة لدى مواطنيه ، فأحرز ٢١٣ صوتاً وأحرز منافسوه جميعاً ٢١ صوتاً .

وكانت معارك سنتي ١٨٦٤ و١٨٦٥ معارك فاصلة ، ابتسم النجاح فيها للشمال الذي عانى كثيراً من الآلام ، بهمة قادة ميامين اختارهم لنكولن فأحسن اختيارهم ، منهم شيرمان وشيريدان وبوتلر ، ومنهم مياد بطل موقعة غيتسبورغ ، وعلى رأسهم جميعاً عصامي آخر نشأ مثل لنكولن من عامة الشعب ، وكان له مثل ارادته ومضائه ، وهو يوليسيس غرانت احد القادة الكبار الذين أنجبهم العالم الجديد .

وقد بذل غرانت جهداً عظيماً لتحقيق خطة حربية أوحاها اليه الرئيس ، وهي خطة ترمي الى تطويق الائتلافيين ومحاصرتهم بحراً من سوث كارولينا شمالاً حتى فلوريدا جنوباً ، لعرقلة تجارة الجنوب الخارجية والضغط عليه اقتصادياً واضطراره أخيراً الى الاستسلام . وكان لتفوق القوى البحرية الشمالية اثر كبير في نجاح هذا الحصار . فأخذت المواد الضرورية للحياة تتناقص في الجنوب، حتى ساد الفقر والشقاء واصبح تموين الجيش امراً متعذراً. ورافق ذلك الحصار البحري ، تطويق بري . وقد ضرب هذا الطوق على نطاق واسع ، ثم بدأت أبعاده تتقارب ، وأخذ يلتحم شيئاً فشيئاً ، رغم الجهود اليائسة التي بذلها جفرسون دافيس رئيس الحكومة الائتلافية ، والجنرال لي قائد جيوشها ، ورغم المقاومة

الضارية التي أبدتها هذه الجيوش في دفاعها عن مواقعها .

وشجعت هذه الانتصارات ابراهيم لنكولن على أن يخطو خطوة حاسمة في سبيل تحرير الرقيق ، بعد ان رأى ان المنشور الذي اذاعه لم يحقق الغرض المنشود لانه لم يصدر عن سلطة تشريعية يخولها الدستور حق الفصل في هذه الامور. فطلب من الكونغرس أن يقرّ تعديلاً للدستور يمنع الاسترقاق بموجبه الى الابد ، فاقرّ الكونغرس هذا التعديل في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٥ ، بعد مناقشة طويلة بصدده ، ثم احيل على الولايات المختلفة للموافقة عليه كي يصبح قانوناً نافذاً ، فلم تقرّه هـذه الولايات الا في ١٨ كانون الاول (ديسمبر) من تلك السنة ، بعد أن أحرز الشمال انتصاراته الحاسمة على الجنوب .

وفي ٤ آذار (مارس) سنة ١٨٦٥ احتفلت واشنطون احتفالها التقليدي بالرئيس الجديد القديم ، وساهم في هذا الاحتفال جنود من الزنوج ، فكانوا الزنوج الاول الذين ساهموا في القـارة الاميركية باحتفال رسمي . ولما وقف ابراهيم لنكولن بين الجمهور الحاشد الذي يحتفي برئاسته ويبتهج بعهده الجديد ، ليلقي خطابه التقليدي ، راع ذلك الجمهور الذي أحبه وأخلص له ، أن يرى الشيخوخة قـد عاجلته وهو ما يزال في سن السادسة والخمسين ، فقوست كاهله ، وحنت ظهره ، وأذهبت من محياه نضارته ، وطبعته بطابع مخوف من الألم ، يرتسم على قسماته التي حفرتها عواصف النضال العنيف ، ويتراءى في عينيه الطيبتين كأنـه انعكاس الغروب .

وتحدث لنكولن في ذلك الاحتفال فقال : « اننا نؤمل ، ونطلب من الله بحرارة ، ان تنتهي هذه الحرب الرهيبة قريباً ، ولكن اذا أراد الله ان تدوم هذه الحرب حتى تبيدَ ثروة تراكمت بالعمل المسخّر الذي قام به العبيد طوال مائتين وخمسين سنة ، وحتى يُكفّر الدمُ الذي يسفكه السيف عن الدم الذي اهرقه السوط ، فينبغي لنا ان نردد حينئذ الحكمة التي قالت منذ ثلاثة آلاف سنة : ان عقاب الله حق وعدل!

« لنتابع مهمتنا الى النهاية ، دون ان نضمر البغض لاحد ، بل بإحسان نحو الجميع ، ولكن بصرامة شديدة فيما ارانا الله انه حق . ولا بد من ان يجزينا الله على عملنا ، فيسود الوفاق امتنا ، ونصل الى سلام عادل بين ابناء هذه الامة وبين غيرها من الامم » .

وفي ذلك النهار الربيعي الجميل ، استمرت السماء تمطر رذاذا منذ الصباح الباكر . ولكن بينما كان لنكولن يلقي هذه الكلمات القدسية التي تذكّر بكلمات الانبياء القدامى الذين كان الايمان حاديهم في النضال من أجل حرية اوطانهم وسعادة شعوبهم ، اخترق الغيوم شعاع من الشمس أضاء ساحة الاحتفال ، والتمع على وجهه الشاحب المعذّب ، كأنه بشير الانتصار العظيم ...

الانتصار

•

كان الطوق الذي ضربه الجيش الجمهوري حول الائتلافيين ، يضغط عليهم يوماً بعد آخر ، حتى وصل بجبهة القتال الى ضواحي ريشموند . وقد أراد لنكولن أن يقيم دليلاً جديداً على عظمة ورحابة صدره ، فمد يده الى خصومه داعياً اياهم الى التسليم ، ولكنهم رفضوا مصافحة يده الاخوية ، وقبول شروطه القاضية بتحرير الرقيق والعودة الى الاتحاد . ولما وثق من ان النخاسين وأشياعهم لن يتنازلوا الا بالقوة ، عن امتيازات نالوها بالظلم والعنف ، أمر جيوشه بالهجوم على ريشموند ، فما عتمت ان تحطمت مقاومتها في الثالث من نيسان (أبريل) سنة ١٨٦٥ ، وغادرها الرئيس دافيس والقائد لي بعد أن أمر بأحراق المستودعات والمؤسسات العامة لئلا ينتفع بها الفاتحون . وقد انتشرت فيها الفوضى ، وشبت الحرائق ، وانطلق اللصوص والمجرمون يعيثون فساداً ، حتى خيل للناس أن نهايتهم قد اقتربت . ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا موسيقى الجيش الجمهوري ، وشاهدوا طليعته التي تؤلفها فرقة من الزنوج كان اكثرهم عبيداً في هذه المدينة نفسها ، فدخلوها فاتحين منتصرين ، وما لبثوا أن أقروا النظام فيها ، وأطفأوا

الحرائق ، وأنقذوا الجرحى ، وأعـــادوا الامن والسكينة الى النفوس .

ودخل لنكولن العاصمة التي قهرها بعد حرب دامت خمسة أعوام ببساطة العظيم الذي يهمّه أن يكون عظيماً في ذاته وليس في المظاهر التي يحيط نفسه بها ، ولم يكن يرافقه سوى عشرة أنفـار وضابط واحد ، فاحتشد لرؤيته جمهور حـــافل اكثره من الزنوج ، زنوج الجنوب ، الذين كانوا عبيداً أرقاء الى ساعات قليلة ، والذين تحطم نير عبوديتهم لما تحطمت مقاومة المدينة ، فكانوا يهرعون نحو مسيحهم يحاولون تقبيل يديه بعاطفة تكاد تكون دينيـة ، وهو يصافحهم برفق واخلاص .

ونسي الوطني الكبير الاحقاد والاهانات والخيانات ، كي يوطّد وحدة الوطن ويضمد جراحه ، وعاد الى واشنطون في التاسع من نيسان (ابريل) ، فلم يكد يصل اليها حتى بلغه نبأ استسلام القائد لي مع ٢٥ الف جندي و ٧٥٠ مدفعاً ، وكان هذا النبأ يعني انتهاء الحرب الاهلية .

وانقضت خمسة ايام تألقت فيها مجالي الفرح بالنصر ، والابتهاج بالسلام ، والاعجاب بالرئيس العظيم الذي وحّد الوطن ومحا عنه عار الرق . وكانت غبطة الناس تمتزج بيقظة الطبيعة الخارجة من رقادها الشتوي العميق ، وبنشوة الربيع الذي كان ينثر بيـــده السخية البراعم الذهبية والاقاحي البيض في الحقول التي سقتها الدماء ، ويفتّق اكمام الزنبق والسوسن في جنائن البيت الابيض ، ناشراً عبيرها الساطع في الآفاق .

وفي اليوم السادس ، وهو يوم الجمعة الحزينة الموافق ١٤ نيسان سنة ١٨٦٥ ، أفاق لنكولن زاخر القلب بالعواطف الانسانية الكريمة ، فوقّع مرسوماً بالعفو عن محكوم بالاعدام ، ثم قضى ساعة مع ولديه روبير العائد من الجبهة وتاد الصغير الاخرس ، وصحب زوجته بعد الظهر في نزهة قصيرة بالعربة ، ثم ذهب معها الى مسرح فورد برفقة صديق له يدعى رابثون وخطيبته هاريس ابنة احد اعضاء مجلس الشيوخ ، لحضور حفلة تمثيلية تقام فيه احياء لذكرى موقعة سمتر التي استردت فيها جيوش الجمهورية حصنها الشهير . فما كاد الرئيس يدخل مقصورته ، حتى تجاوبت ارجاء القاعة بالهتاف والتصفيق ، وعزفت الموسيقى النشيد الوطني احتفاء بالمحرر العظيم ، ثم ابتدأت الحفلة . وبينما كان لنكولن وزوجه وضيفاه منصرفين الى مشاهدة التمثيل ، وظهورهم الى باب المقصورة انشقّ الباب قليلاً ، وتسلل منه شبح يشهر مسدساً باحدى يديه ، وانقض على الرئيس مصوباً مسدسه الى صدغه ، وأطلق النار .

اقترف ذلك الرجل جريمته الشنعاء ، ثم وثب من المقصورة الى المسرح يريد الهرب ، فانتبه السيد رابثون وجذبه من طرف سترته ، فتعثرت قدم المجرم في قضبان الرايات التي تزين المقصورة ، وسقط على المسرح فأصيب بكسر في احدى ركبتيه ، ولكنه نهض رغم ذلك واتجه الى احد مخارج المسرح وهو يصيح ، وقد استل خنجراً من حزامه : « الويل لمن يقترب مني » . فاعترضه الملقن بريد إيقافه ، واذا به يهوي الى الارض مصاباً بطعنة من خنجر الجاني ، بينما كان هذا يثب الى الدهليز ويغادر المسرح من بابه الخلفي ،

حيث كان في انتظاره رفيق له مع جوادين امتطياهما وانطلقا بهما متواريين عن الانظار .

وقد ظل الجنود والاهلون يطاردون الشقي وقد عرفوه ، حتى اهتدوا الى آثاره بعد بضعة أيام ، فحاصروه في حظيرة للماشية باحدى المزارع ، وأنذروه بتسليم نفسه ، فلما رفض أشعلوا النار في الحظيرة ، فحاول الهرب ثانية ولكنه وقع هذه المرة صريعاً برصاصة أطلقها عليه احد الجنود .

وكان هذا القاتل ممثلاً بارعاً يدعى جون وايلز بوت ، وقد عقد النية على اغتيال لنكولن من زمن بعيد لشدة تعصبه للجنوب ، فدبر أول الامر خطة لاختطافه كي يجعله رهينة لدى الجنوبيين يساومون الحكومة عليه للفوز بالشروط الملائمة لهم عند عقد الصلح ، وألّف لهذا الغرض عصابة من الممثلين العاطلين ، ولكنه أخفق في خطته غير مرة ، لان الرئيس كان يعرض له ما يعوقه عن الخروج الى النزهة في الطريق الخالية المؤدية الى بلدة برايانتاون كلما كمن له فيه افراد العصابة التي تتآمر عليه . فاستشاط بوث غيظاً وأقسم ليقتلنه في اول فرصة تعرض له ، ولما أذاعت الصحف أن رئيس الجمهورية سيشهد الحفلة التمثيلية التي تقام في مسرح فورد ، وان القائد غرانت سيكون في رفقته ، رأى ان الفرصة قد تهيأت له فاعتزم ان يقتل في آن واحد كلاً من لنكولن وغرانت . ولكن القائد وزوجته اعتذرا عن مرافقة الرئيس في تلك الليلة لسبب عائلي طارىء ، فنفذ الجاني جريمته في ابراهيم لنكولن وحده .

وقد وقعت الجريمة النكراء في لحظات معدودة، حتى ان الجمهور الذي انتقل بغتة من ملهاة مضحكة الى أفجع مأساة ، ظل هنيهة في دهشة وذهول . ولقد حاول لنكولن النهوض لما أصابته الرصاصة في صدغه ، ولكنه ما لبث ان تداعى على مقعده كسنديانة شامخة تهوي تحت ضربة فأس . ثم فقد وعيه لشدة ما نزف الدم من جرحه . وهرع الجند فحملوه الى منزل خياط بجانب المسرح للعناية به . ولكن الاطباء وقفوا عاجزين ، فالرصاصة الغادرة قد اصابت الدماغ ، فليس من سبيل الى العلاج ، وليس من أمل في الشفاء . ولم تمض ساعات قليلة حتى توقف عن الخفقان ذلك القلب الكبير ، وأصبح صاحبه ملكاً للتاريخ !

وبكت الولايات الاميركية ابنها الذي أصبح أباً لها أزال فرقتها ووطد وحدتها . وسار الزنوج في طليعة الموكب الذي حمل مسيحهم الى مقره الاخير في سبرنغفيلد . وتلاقى الخصوم والانصار في مأتم الرجل الذي بذل حياته في سبيل توحيدهم وتآخيهم . وجلجلت اجراس الكنائس على اختلاف طوائفها ، تنعى بصوتها النحاسي المهيب ، الرجل الذي لم ينتسب الى كنيسة منها ولكنه كان من أعظم الناهجين على شرعة الحب والرفق والأخاء والمساواة .

بعد لنكولن

•

حقّ علينا أن نتساءل عن مصير الزنوج بعد انتهاء الحرب الاهلية ومصرع ابراهيم لنكولن .

لقد أعتقت هذه الحرب ، عملا بالتعديل الثالث عشر للدستور الذي اقترحه لنكولن والذي تمت الموافقة عليه في ١٨ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٦٥ ، أربعة ملايين رقيق ، كما أعتقت اولادهم وأحفادهم الذين صاروا يولدون أحراراً .

ولم يكتف مريدو لنكولن بهذا التعديل الذي قضى على نظام الرق نهائياً ، فاستطاعوا حمل الكونغرس على اقرار تعديلين آخرين عرفا بالتعديل الرابع عشر والتعديل الخامس عشر ، أصبح الزنوج بموجبهما يتمتعون بالجنسية الاميركية وبكافة حقوق المواطن المدنية والسياسية . ولكن هذين التعديلين في الدستور لم يتجاوزا في الواقع دفتي الدستور نفسه . فلئن كان الزنجي قد اعتق من نير العبودية فلم يعد سلعة تباع وتشرى ، وهو امر خطير وحدث كبير في تاريخ الولايات المتحدة ، الا أنه ظل في نظر اكثر المواطنين الاميركيين ، ولا سيما أبناء الجنوب منهم ، عبداً رقيقاً من الناحية المعنوية ، اذا جاز هذا التعبير .

يقول الاستاذان فرحات زيادة وابراهيم فريجي في كتابهما «تاريخ الشعب الاميركي» الذي أصدرته حديثاً جامعة برنستون الاميركية:

«يختلف العُرف المتبع عن القانون احياناً ويقوى عليه. ومشكلة الزنوج في الولايات الجنوبية من هذا القبيل. فعلى الرغم مما ورد في التعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور، من منح الزنوج حق التصويت، فقد وضعت جميع العراقيل من قبل الحكومات الجنوبية أمامهم، مانعة اياهم ممارستهم هذا الحق. فأوجبت على الناخب دفع ضريبة عنق، او اجتياز امتحان في القراءة والكتابة، او تفسير مادة من الدستور، وغير ذلك.

«لا شك في ان هذه القوانين هي عامة تشمل أحكامها البيض والزنوج على السواء. ولكن يجب الا يفوتنا ان تطبيقها لا يتناول في الواقع غير الزنوج والطبقة الفقيرة من البيض. فمن الخطأ اذاً الظن بان حق التصويت في الجنوب يسير على قاعدة المساواة بين السكان كما هي الحال في الشمال.

«ولا بد من القول إن المساواة المطلقة في مختلف الولايات المتحدة، بين البيض والزنوج، لا وجود لها في الواقع. فالزنوج في مركزهم الاقتصادي يسيرون في المؤخرة. والاختلاط الاجتماعي بين الجنسين يكاد يكون مفقوداً. وتظهر هذه الامور واضحة في الجنوب حيث حُرّم على الزنوج الجلوس في القطارات وسيارات النقل والامكنة العمومية، بجانب البيض. فأحياء سكناهم واسواقهم العامة ومعابدهم ومؤسساتهم، قامت منفصلة عن مساكن البيض واحيائهم.»

وفي وسعنا ان نضيف الى هذا ان الزنوج لا توضع العراقيل امام

ممارسة حقهم في الانتخاب ، بل يمنعون من ذلك بالقوة . فهم يعانون اضطهاداً عنيفاً وحقداً عنصرياً مغرقاً في الرجعية . وما تزال حتى الآن تنصب المشنقة في اقرب مكان لأعدام زنجي اغضب احد المواطنين البيض ، او يرجم آخر لأنه نظر الى امرأة بيضاء نظرة لم تطمئن اليها !

ومن عجائب الامور ، ان الرأسماليين الذين كانوا في طليعة المناضلين من اجل تحرير العبيد لحاجة مصانعهم الى اليد العاملة ، اصبحوا الآن ، وقد تحرر الزنوج من عبوديتهم ، من اول العاملين على تغذية الحقد العرقي الذي ينالهم بأسوأ الذل والامتهان ، لان اضطهادهم على هذا الشكل ، يعزلهم عن الحياة العامة ، ويضطرهم الى العمل في المصانع والمناجم بأدنى الاجور كي لا يموتوا جوعاً ، فضلاً عن ان إذكاء الحقد العنصري بين البيض والسود يحول دون تضامن العمال منهم في الكفاح من أجل حقوقهم الاجتماعية ورفع مستوى حياتهم الاقتصادي .

ولكن زنوج الولايات المتحدة الذين يبلغ عددهم الآن ١٤ مليوناً اي ١١ بالمائة من مجموع السكان ، وهم اكثر وعياً واوفى ثقافة من عبيد الامس ، لا يستكينون للاضطهاد الذي يلاقونه مسلّمين بالامر الواقع ، بل يناضلون باستمرار في سبيل الحصول على المساواة الحقيقية مع المواطنين الآخرين ، ورفع مستواهم الاقتصادي والسياسي ، يؤيدهم في ذلك المواطنون البيض الواعون والمثقفون المستنيرون ، وارثو رسالة لنكولن العظيم في ثورة الفكر والنضال من اجل حقوق الانسان .

كلمات مختارة لابراهيم لنكولن

•

ان بيتاً منقسماً على نفسه لا يثبت ، وانا اعتقد بان هذه الدولة لا تستطيع ان تدوم نصفها حرّ ونصفها عبد .

•

ان مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح . هو مبدأ صحيح دون ادنى شك ، وسيظل صحيحا الى الابد . ولكن اذا كان الزنجي انساناً ، ألا نرى ، بقدر ما في ذلك المبدأ من صحة ، اننا اذا حرمناه حكم نفسه ، انما ننتهك بذلك مبدأ سيادة الشعب ؟

حين يحكم الرجل الابيض نفسه ، يكون ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه حين يحكم نفسه ويحكم رجلاً غيره ، فان ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب : انه الاستبداد بعينه .

•

ان من حق أية امة في أية جهة ، اذا ما أحست في نفسها الميل واستشعرت القوة ، أن تثور في وجه الحكومة القائمة وتعصف بها ، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون اكثر ملاءمة لها .

•

انكم باعتيادكم عدم الاكتراث لانتهاك حقوق غيركم ، انما

تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم أنتم ، وتصبحون طعمة لكل طاغية يخرج من بينكم .

•

في النابهين الطيبين من الناس ، ممن تتوافر فيهم الكفاية لان يحسوا أيّ عمل يوكل اليهم ، كثيرون لا تمتد أطماعهم الى ما هو أبعد من مقعد في المجلس النيابي ، او من مركز في الحكومة ، او من وصول الى كرسي الرئاسة . ولكن هؤلاء لا ينتمون الى اسرة الضراغم ولا الى جماعة النسور .

•

انكم تستطيعون أن تخدعوا كافة الناس ردحاً من الوقت ، وبعض الناس طول الوقت ، ولكنكم لن تستطيعوا ان تخدعوا جميع الناس إلى الابد .

•

كان العبيد السود يؤلفون الثمن من سكان هذه البلاد ولم يكونوا متوزعين بالتساوي في انحائها وإنما كانوا يسكنون الجنوب . ومن هؤلاء العبيد كانت تنتفع أناس منفعة خاصة عظيمة . وكلنا كنا نعرف ان هذه المنفعة ستثير الحرب . وكان الثائرون الداعون الى تمزيق وحدة الامة يقصدون الى تقوية هذه المنفعة وتخليدها ومد شبكتها ولم يكن قصد الحكومة الا تحديد هذه المنفعة وقصرها على مكانها دون ان تتسع دائرتها الى ولايات اخرى . ولم يكن احد الحزبين يتوقع ان تبلغ الحرب هذا المدى او تطول الى هذه المدة كما لم يكن احدهما يتوقع حسم النزاع والاتفاق قبلما تعرف

نتيجة الحرب . فكان كلاهما ينتظر انتصاراً سهلا أهون نتيجة وأقل هولا . فكلاهما يقرأ انجيلا واحداً ويصلي لاله واحد . وكلاهما يدعو الله ان يعينه على خصمه . وربما يتراءى لكم من الغريب أن يدعو انسان ربه لكي يؤيده في انتزاع الخبز من عرق جبين الاخرين .

مراجع الكتاب

Emil Ludwig : Abraham Lincoln.

Yvonne Pitrois : Abraham Lincoln, Le Libérateur des Esclaves.

André Maurois : Histoire des Etats Unis

Auguste Moireau : Histoire des Etats Unis de l'Amerique du Nord.

محمود الخفيف: ابراهيم لنكولن هدية الاحراج الى عالم المدنية ، مجلة الرسالة ، السنة السادسة ، الاعداد ٢٤١ الى ٢٨٦ ، وقد اخذنا عن هذه الفصول بعض ما استشهدنا به من أقوال لنكولن .

الدكتور نجيب الارمنازي : ابراهيم لنكولن ، مجلة المقتطف ، المجلد ١٠٥ ، الصفحة ١٤٥ .

فؤاد صروف : مجمل من ترجمة الرئيس لنكن ولمحة من شخصيته ، مجلة المقتطف ، المجلد ٧٧ ، الصفحة ٢٨١ .

حسن الشريف : مصرع ابراهام لنكولن ، مجلة الهلال ، المجلد ٤٧ ، الصفحة ٤١٧ .

احمد فريد الرفاعي : الشخصيات البارزة التاريخية .

فرحات زيادة وابراهيم فريجي : تاريخ الشعب الاميركي .

روبرت شرمان : من ابراهام لنكولن الى ماري أوين ، تعريب سمير شيخاني ، مجلة المكشوف ، العدد ٤١٠ .

فهرست

ابن الغابات	٤
في معترك الحياة	١٠
الحب الاول	١٧
محامي سبرنغفيلد	٢٨
تجارة الرقيق	٣٧
فكرة تجد ممثلها	٤٣
زئير العاصفة	٥٣
الحرب الاهلية	٥٩
عبء العظيم	٦٦
المعارك الفاصلة	٧٧
الإنتصار	٨٢
بعد لنكولن	٨٧
كلمات مختارة لابراهيم لنكولن	٩٠
مراجع الكتاب	٩٣

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

صدر عن دار العلم للملايين

•

قرش لبناني

العرب	للدكتور فيليب حتي	٤٠٠
منهج البحث في الادب واللغة	ترجمة الدكتور محمد مندور	١٥٠
قضية العرب	للاستاذ علي ناصر الدين	٢٥٠
التربية الوطنية	(طبعتان مدرسية وعامة)	
	للاساتذة جحا وشهلا ومحمصاني	٤٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	ترجمة الدكتور عمر فروخ	٢٠٠
تجديد مناهج إعداد المعلمين بالعراق	للدكتور خالد الهاشمي	٤٠٠
السلسلة السيكولوجية (٢٤ كتاباً)	من ١ - ١٥	١٠٠
	من ١٦-٢٤	٦٠
سلسلة الثقافة الجنسية (عشرة كتب)		١٥٠
العرائس (شعر)	للاستاذ ابراهيم العريض	٢٢٥
سعد زغلول	للاستاذ قدري قلعجي	١٥٠
نحو التعاون العربي	للدكتور عمر فروخ	١٠٠
على المحك	للاستاذ مارون عبود	٤٠٠

•

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

يصدر قريباً

عن دار العلم للملايين

•

كيف تغلب الانسان على الألم — للدكتور نقولا فياض

يصدر في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٦

اشواق (قصص) — للاستاذ سهيل ادريس

يصدر في ٢٥ كانون الاول ١٩٤٦

الديموقراطية (الكتاب الأول من السلسلة السياسية)

للرئيس بينش ترجمة الاستاذ حسن صعب

يصدر في اول كانون الثاني ١٩٤٧

فن القراءة (الكتاب الثالث والعشرون من السلسلة السيكولوجية)

يصدر في أول كانون الثاني ١٩٤٧

DATE DUE

- 1 OCT 1973

JAFET LIB.
14 NOV 1991

923.173:L736qA:c.1
قلعجي، قدري
ابراهيم لنكولن
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01050824

923.173:L736qA
قلعجي .
ابراهيم لنكولن .
Borrower's

923.173
L736qA

923.173
L736qA
c.1